الإكسير

إسلام رمضان

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة– اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها– بالشباب الموهوب..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها"النشر لمن يستحق"لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائجها، على رأسها:

– توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

– تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب، حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

– تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

– توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصري، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح – مثل سابقيها– بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

الناشر

إلى المربية الفاضلة..

صديقة دربي ونور حياتي..

من قالت لي يومًا في عيد ميلادي تحديدًا:

كتابك صديقك وليست ألعابك..

من أهدتني يومًا كتابي الأول

«في سبيل موسوعة علمية»

وقد كان دربي

شكرًا لكِ أمي

- 1 -

أنا دكتور «إ. ر»، دكتوراه في علم البيولوجي من جامعة أكسفورد، أبلغ من العمر الرابعة والستين، ولكن إن نظرت إلي فستجدني قد بلغت المائة عام بذلك الوجه الشاحب، البغيض، المعروق، وتلك النحافة التي تجتاح جميع أنحاء جسدي، مع شَعرٍ أشعث ونظرة مرتاعة دائمًا، ووجه ذي سحنة مكفهرة لا تشرق بابتسامة أبدًا، باردًا، قليل الكلام في إظهار عواطفي، ورغم هذا كنت إلى حدٍ ما لطيفاً.

كان شيء بشري يلتمع في عيني، شيء لم يجد طريقه قط للكلام.

كل هذا مما حدث لي في ذلك اليوم، وها أنا أكتب مذكراتي قبل فوات الأوان وأشكر الله تعالى أن في العمر بقية وأنا أخط كلماتي الأخيرة عن هذا الاكتشاف المذهل، يجب أن أتم ما بدأت مهما كلفني الأمر، يجب أن يعلم العالم ماذا رأيت، بلى، ما رأيت يحتم علي أن أفني عمري لهثًا وراءه، بل وزحفاً، باحثًا عن الحقيقة التي يغفل عنها العالم ويلهث راكضًا وراء شهواته ونزواته ويجعل الأصل الحيواني هو المتحكم فيه كيفما يشاء ومتى يشاء، ولا يعلم هذا السر الخطير، سأخط كلماتي ليرى العالم تلك الحقائق، سأمتطي صهوة الصعاب، حتى وإن غدوت بلا شيء، وأن عشت وسط الذئاب، فالموت لي خير من حياة الخنوع.

إن لم تُنشر تلك المذكرات ويعلم بها العالم أجمع فسيعيش في جاهلية، لأن ما رأيت هي الحقيقة الوحيدة في هذه الدنيا بعد الموت، وقبل الموت، وإن علموا فسيعيش الواحد منهم القرنين من العمر وهو في شبابه وفتوته! نعم إنها الحقيقة التي أسطر كلماتها الآن.

ومن منا يقل إنه يعرف شيئًا، فهو لا يعرف نفسه تمام المعرفة، ولا أنا ولا أحد يقول إنه يعلم شيئًا، حقًا ما أصعب الوصول إلى الحقيقة.

حينما كنت جالسًا في محل صائغ منذ ما يقارب الخمسة أشهر أبيع خاتم زوجتي التي ماتت منذ سنتين، وكنت أحادث الصائغ عن ثمن الخاتم لعله يرفع السعر بعض الشيء، وإذ كنا غارقين في المجادلات دخل علينا شاب وخطيبته ليقطعا حديثنا.

دخل الشاب وهو يبدو من هيئته أنه طبيب أو مهندس أو عالم، بذلك الوجه العابس الخجول، وذلك الجسم المنحني قليلاً، وتلك العروق البارزة من بين خلايا يده تشعر أنها تأبى أن تكون في هذا الجسد الخالي من الدهون، كأحدب ضل الطريق في سيره ينحني هنا وهناك يتحسس قامته دائمًا، وخطيبته بوجهها البليد الذي يخفي وراءه حالة اكتئاب من الدرجة الثالثة، عابسة، لا تتحدث، لها جسم مثالي ومنحنيات قياسية تنم عن أنوثة متفجرة، بتلك الخُصلات الغجرية، ولكنها تحمل بين طياتها صوتًا

حادًا لم أسمع مثله قط.

كنت أظن أنها لا تحب خطيبها، وأنه زواج صالونات، أو لا ترتضيه لها زوجًا، ولكن الأمر ليس كذلك على ما أظن.

- تفضلا بالجلوس.. ماذا تريدان؟ قالها الصائغ.

قال خطيبها:

- نريد خاتماً ذهبيًا لزواجنا.

فما لبث أن أعطاهما خاتم زوجتي، حينما وجد أن إصبعها له نفس مقاس الخاتم تقريبًا، نظرا إلى الخاتم نظرة ممتعضة، طويلة، عابسة، ثم قامت الفتاة بقياسه. وما إن وضعته في إصبعها حتى أصيبت بحالة إغماءة ثقيلة ودخلت في غيبوبة وبدأت تتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم صرخت في وجهي بنظرة تحمل في طياتها الفزع الشديد والرعب المستتر.

ظننت بداية أنها نوبة صرع أصابتها، لكن لا تشنجات، لا عصبية، صراخ فقط.. وقالت:

- لا.. لا أريد هذا الخاتم إنه لامرأة ماتت منذ سنتين.. بلى.. حتى إن اسمها هو منة يوسف. بلى.. ماتت من سنتين في فراشها.

وقعت الكلمات على أذني كوقع مطرقة على رأسي! صاعقة أصابتني

جعلت عقلي لا يعمل! دخلت في حالة ذهول شديد وكأني أشاركها غيبوبتها، كل ما قالته صحيح.. بلى.. إن اسم زوجتي منة يوسف، وماتت حقاً منذ سنتين، وعلى فراشها، لكن كيف علمت ذلك؟ سألتها، ولكنها لا ترد وإنما تصرخ وتصرخ فقط:

- لا أريد هذا الخاتم.. لا أريد أي خاتم لامرأة ماتت قبل ذلك.

لا أستطيع التفكير. الأمر تعدى الذهول إلى التجمد والتثلج في الأطراف، الفزع والخوف والحقيقة في الوقت وذاته، كأني تجرعت ألف كأس من نبيذ «**meister**».

انتظرت حينما أفاقت من إغماءتها الثقيلة، قلت لها:

- بلى. كل ما قلتيه صحيح، ولكن كيف علمتِ ذلك؟ أنا زوج صاحبة الخاتم.

قال خطيبها بسرعة خاطفة:

- إنها مجرد صدفة، ثم أخذها وانصرفا في سرعة كسرعة الضوء في سريانه واختفيا!

سألت الصائغ الذي لا تظهر عليه أي علامات من الدهشة أو الخوف أو حتى الفزع مما رأينا! حتى تصورت أن الأمر يُهيأ لي أنا فقط وأني فقط من

شاهدت هذا الفيلم المرعب:

- هل رأيت ما رأيت؟

- بلى.

- حمدًا لله أنـي مـا زلـت بـسلامة عقلـي.. ولكـن لـماذا لم تنـدهش أو تفزع؟!

فقال لي:

- لقد رأيت هذا قبـل أسـبوع مـن الآن، وقـد كنـت في نفس دهـشتك وفزعك ورعبك، فقد جـاءا ليـشتريا خاتمـاً، وعنـدما أعطيتهـا الخـاتم، فعلت كما فعلت أمامك الآن، وقالت إن الخاتم لامرأة ماتـت منـذ خمـس سنوات!

- وهل تعرفهما شخصيًا؟

- أحمد متولي طبيب حديث التخرج، ورهف 23 عامًا.

- وأين يعيشان؟

- أحمد يعيش في حي شبرا وهي تقطن حي المظلات.

- وماذا عن التي ماتت منذ خمس سنوات؟

قام وبحث في دفاتره ثم أتى بأحدهما وبدأ البحث والوقت يمـر علـي

كأنه الدهر، لا أعلم عن ماذا يبحث وكأنه يتجاهلني، وفجأة قال لي:

- ها هو المهندس إبراهيم الطناني.

بسرعة كنت قد أخرجت نوتتي من جيبي التي أحملها معي في أي مكان، وبدأت في تسجيل ما يقول:

- المهندس إبراهيم الطناني، 67 عامًا. يقطن حي المظلات، عمارات أغاخان، عمارة 11، شقة 9.

ودونت أيضًا رقم هاتفه. ثم دونت اسم الفتاة واسم خطيبها وعنوان كل منهما، أخذت سيارتي عائدًا إلى المنزل لآخذ قسطًا من الراحة، ومعرفة ما يدور في هذا الأمر العجيب، لمع في عيني ما كتبت في النوتة.

رهف في المظلات.. والمهندس إبراهيم الطناني المظلات!

هل هذه محض صدفة فقط أم أنهما يعرفان بعضهما؟!

قد يكونان قريبين؟

– 2 –

جالت كل تلك الخواطر في عقلي وأنا أقود سيارتي، كان قراري الأول أن أذهب إلى المهندس إبراهيم الطناني أتحدث معه عما رأيت اليوم ولكـنـي لا أستطيع النوم أبدًا وكل عقلي وتفكيري يدور حول ما رأيت اليوم وهذا المشهد الذي صعقني.. وكيف علمت تلك الفتاة بمكان وزمـن مـوت زوجـتي واسمهـا أيضًا؟!

ما الذي في عقلها؟

وما سبب حالة الاكتئاب التي تبدو على ملامح وجهها العابس البليد المثلج؟

وما سبب حالة الإغمـاءة الـتي انتابتـهـا والغيبوبـة الـتي تقـع فيهـا ويصدر عنها صراخ وصوت نحاسي لا يدل على أي أنوثـة تكمـن في داخلـها؟ وإنما صوت امرأة تجاوزت القرنين مـن العمـر والزمـان، ذلـك الـصوت الـذي يشعرني بقشعريرة تسري في كل خلية في جسدي حينما يتردد على ذهني!

هـل هـو مـس شـيطاني؟ لا.. لا أصـدق في «تلـبس الأرواح» والمـس الشيطاني لأن كل ما هو محسوس وقابل للإدراك بالحواس موجـود ومعلـوم، أما ما هو غير مرئي ولا مسموع ولا محسوس فهو ببساطة غير موجود.

بالنسبة لي كعالم أفنى أربعة عقود من عمره بحثًا في العلم وإجراء التجارب والاختراعات.. بالطبع هذه تخاريف لا يمكن أن تقال في عصر الذرة.

إن الحياة نظام.. قوانين.. معطيات.. ونتائج.. وأسباب.. ومسببات.. لا مكان للتخريف والحدس والتخمين.

نحن هنا في عالم المنطق كل ما يحدث حولنا يمكن رصده في معادلات وإحصاءات يمكن حتى التنبؤ بها وإصدار النظريات والمعادلات عليها وعلى صحتها.. لا مكان لهذا التخريف..

ولكني لستُ مستريحاً.

في أعماق نفسي لم أكن مستريحاً.

نعم فهذه ليست كل الحقيقة، فهناك الكثير من الأشياء ليست مفهومة حتى الآن في عصر الذرة والعلم.

هناك الكثير من النظريات التي لم تثبت صحتها حتى الآن، وحتى نظريتي الخاصة، نظرية أينشتين والكون ساجد لله، لا أعلم هل هي صحيحة مائة بالمائة أم لا.

لقد عرفنا وتأكدنا من صحة واستنباطات أينشتين في النظرية النسبية

العامة التي تؤكد أن السماء الكونية (المتصل الزمكاني) لها القدرة على الانحناء والتقوس حول الكتل الكبيرة، وهذا ما يجعل الكواكب وجميع الأجرام المادية والإشعاعات (الضوء) تسير في معارج ومنحنيات.. وجميعها كانت بالتجريب والاستنباط.

لكن تماشيًا مع أُطروحاتنا التي تحاول أن تكشف عن الأبعاد والمعاني الروحية لقوانين الكون ألا يمكن اعتبار هذه المعارج الفضائية والمنحنيات الهندسية التي تجبر الشموس والكواكب والأنوار الإشعاعية على السير في خطوطها المقوسة بمثابة سجود لله تعالى؟ سألت نفسي.

ألم يأمر الله تعالى المسلم بالسجود في صلاته؟ ألا يكتمل المشهد الكوني من الناحية الروحية والجمالية باعتبار أن الكون يسجد في حركته لله خالقه ومبدعه؟

لكني أمتلك بعض الأدلة التي تفيد بأن هذا الانحناء الكوني هو تعبير عن السجود لله تعالى..

لنأخذ بعض الشواهد القرآنية: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». (الآية **18** – سورة الحج). تشير الآية إلى مشهد

السجود الكوني لله عز وجل، فكيف يمكن أن نفهم سجود الشمس والقمر والنجوم في الآية الكريمة؟

أليس السير في المنحنيات والمعارج الإلهية التي تحكم هندسة الكون بمثابة سجود لله؟

لقد رسم القرآن مشهدًا ذكرناه سابقًا حول هبوط الحجارة خشية من الله، وهذا الهبوط للكتل هو «الذي استنتج منه أينشتين مبدأ التكافؤ الذي عرف من خلاله أن الهندسة الفضائية لا بُدَّ أن تكون مقوسة ومحدبة».. حتى إن النبي يوسف الصديق – عليه السلام – رأى في منامه مشهدًا كونيًا تظهر فيه المجموعة الشمسية ساجدة..

النقطة الهامة هي أن القرآن يعطينا إمكانية لفهم أن هذه الحركات الفلكية يمكن أن تترجم إلى فكرة السجود، ومن المدهش أن الصلاة كفريضة إسلامية فرضت في «رحلة المعراج» عندما صعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى السموات العلى، وكأنها إشارة إلى أن هذه الصلاة عبادة كونية (السجود لله تعالى) فكل النجوم والشموس والكواكب تسير في المعارج الإلهية وتسجد لأوامر الله تعالى.

والأدهى من ذلك أن جميع حركات الطواف وتحركات الكواكب والشموس في أفلاكها عكس تحركات عقارب الساعة، والأمر يؤدي إلى المفهوم

النسبي لأينشتين أننا نسير الساعة عكس الحركة المعتادة لنقيس الزمن.

من خلال الكلمات السابقة غيرت نظرية النسبية نظرتنا إلى الكون تغيرًا جذريًا، فالنسبية الخاصة أعطت تصورات ثورية عن طبيعة المكان والزمان؛ حيث غدا المكان مفهومًا نسبيًّا ينكمش في اتجاه حركة الجسم وتتغير قياساته من راصد لآخر، بل ويمكن أن تصبح المسافة (المكان) تساوي صفرًا إذا ما بلغ الجسم سرعة الضوء (c) وهو مستحيل طبقًا لفرضية أينشتين.

وأيضًا النظرية النسبية غير مفهومة وإلا لغدت قانونًا مثل قوانين نيوتن عن الحركة. ولم يثبت حتى الآن تمام صحتها من عدمه.

الأمر أصبح مخيفاً.. رهيبًا..

بالنسبة لي.. وعلى كل ما يأتي إلى رأسي وتفكيري.. وكل ما لدي من علم أيضًا.. غير مفهوم بالنسبة لي كيف قفز إلى رأس من اخترعه واستنطبته!

نعم.. فكل ما حولنا لغة إلهية لا نعرف لها شفرة خلف الظلمات المحجبة..

من يدري كم من الأمواج والإشعاعات مما لا ندري؟ كل شيء لا

يمكننا رؤيته قد يراه كائن آخر..

وراء هذه المتاهات الشاسعة من الفضاء.. كم من الأصوات هناك لا نسمع وكم من الإشعاعات مما لا نرى ومن الأرواح والأطياف؟ وأستمع إلى كلمات للعالم العظيم والفليسوف ديكارت حينما قال: «وضعنا الماديات محل التجربة فوجدناها تخدع، ووضعنا اللامحسوسات محل التجربة فوجدناها تخدع، فليس هناك حقيقة مطلقة، إلا أني أفكر.. إذن أنا موجود»، انتابني الذعر وعدت من حيث أتيت.. لا فائدة من كل تلك الأفكار الصماء، فقد يكون الأمر أيسر من ذلك..

قد يكون خطيبها ذلك الطبيب حديث التخرج يعلم ما بها!

هل هو السبب في حالتها تلك؟

لا أعلم ولا تسعفني ذاكرتي العلمية بشيء مما أرى اليوم لقلة ما بيدي من حقائق وحقائق مبهمة تمامًا لا أعلم منها ولا عنها الكثير.

أين الحقيقة؟ قد تكون في جعبة المهندس إبراهيم الطناني وقد لا تكون..

هل يعرفان بعضهما حقًّا أم لا تربطهما أي صلة ببعضهما؟

ولماذا هذا الصائغ الذي في الجيزة؟ لماذا هو ولماذا لم يذهبا إلى أي صائغ

آخر؟

لماذا ذهب المهندس، والطبيب وخطيبته، إلى هذا الصائغ؟ هل يعلم شيئًا وأخفاه عني؟

ولكن لماذا أعطاني عنوان المهندس ورقم هاتفه؟

هل العنوان ورقم الهاتف حقًا صحيحين؟

لكنه يقول إنه يعرفهما معرفة سطحية، هل أصدق كلامه؟ كل هذه الأسئلة قد أجد إجاباتها عند المهندس إبراهيم الطناني.

- 3 -

أفقت من غيبوبتي في السابعة صباحًا!

أجد نفسي بملابسي، جالسًا إلى مكتبي وكأن النوم غلـبني مـن كثـرة تفكيري في الأمر. قمت مسرعًا وأخذت السيارة متجهًـا إلى العنـوان المنـشود، إلى مستودع السر كما خيل لي وكما أعتقد.

عنوان المهندس إبراهيم الطناني أمامي، أحملق بـه دائمًـا وأبـدًا إلى أن وصلت بعد عناء، ها أنـا علـى بعـد خطـوات مـن الحقيقـة، وجـدت حـارس العمارة جالسًا يحتسي قدحًا من الشاي ويكركر بشيشته ويخرج دخانًا وكـأن بركان «فيزوف» نهض من جديد لتعود له ثورته.. يمتص في الشيشة وكأنهـا سبيل عيشه أبد الدهر، ويخرج من فمه دخانًـا وكأنـه شكمان سيارة أوشك على الانفجار..

له وجهه ممتلئ بالدهون والشحوم.. تراه فتفزع.. صوته مـضطرب.. مفتول العضلات من فرط بدانتـه.. يرتـدي عمامـة وكأنهـا خـوذة لجنـدي في حرب، تشعر وأنت تحادثه أنه سيارة معطوبة، يدعى عم منصور.

سألت عنه أحد الجالسين في المقهى الذي يقابله، قال لي إنه هنا منذ أربع سنوات يعمل حارسًا لهذا العقار، لا تعرف له ملـة، هـل هـو مـسلم أم

مسيحي أم يهودي.. كل ما نعرف عنه أن ابنه الأصغر وافته المنية في أحد الأيام، ولم يخبر أحدًا ما سبب موته.. ولا حتى كيف مات، ومتى مات، وإنما جاء يوم وجدناه يشيع جثمان ابنه في تابوت صغير وهو يبكي بكاءً مريرًا ويصرخ بكل صوته ويقول: حسبي الله ونعم الوكيل. وله زوجة سمينة بدينة يتهدل الدهن من وجنتيها وكأنها قالب من الزبد البلدي يسيح من فرط حرارة الشمس، يكسبها بريقًا وجمالاً قليلا ما تراه، هي أيضًا لم تعرف حتى الآن كيف مات ولدها؛ حيث وجدت زوجها آتيًا به يحمله بين يديه وهو يصرخ ويولول كالنساء في العزاء، وظلت مندهشة حتى بعد دفن ابنها ووضعه في مثواه الأخير، لم نرها منذ ذلك اليوم حيث تم سجنها والحكم عليها بالمؤبد لأنها كانت تخونه يوميًّا مع أحد ساكني العمارة.

وكانت في يوم من الأيام ذاهبة للمتعة ولكنها أخذت ابنتها معها حتى لا يشك في أمرها أنها تخونه، وعندما كانت في أحضان عشيقها أخذت الطفلة في البكاء لأنها ترى أمها في فراش آخر غير فراش والدها، رغم أنها صغيرة السن، ولكنها تعودت على هذا المشهد أن والدها ينام بجوار والدتها، ولكنها اليوم ترى أمها في أحضان رجل غريب لم تعرفه ولم تره من قبل فاشتعلت بالبكاء، ولكن سرعان ما قامت تلك الأم بالتخلي عن كل صفات الأمومة التي وهبها الله إياها لتركل تلك الطفلة المسكينة بقدمها لتصطدم

بالحائط المقابل لها وتتهشم جمجمتها وتصاب بارتجاج في المخ، ومن ثم انهالت عليها لكمًا وضربًا حتى ماتت الطفلة، وهي لا تعلم لماذا ماتت، هل لأنها كانت تحاول أن تدافع عن صورة والدتها وهي تحذرها ببكائها ونحيبها؟ أم لأنها كانت تريد أن تظل صورة والدتها في مخيلتها بريئة كبراءتها في طفولتها؟

وبعد ذلك هرب العشيق ولم يدافع عن الأم، فهو يعرفها لغرض المتعة فقط، وما إن ذهبت المتعة التي تأتي معها حتى هجرها ولم يأتِ حتى ليشهد شهادة زورًا كما قالت الأم في تحقيقات النيابة إن الفتاة سقطت من فوق الدرج في أثناء هبوطها وهي لم تلحظ ذلك، ولكن الطبيب الشرعي شك في الأمر، فكل تلك الكدمات والدماء التي تسيل تجعل من ملابس الفتاة سجادة يكسوها اللون الأحمر من فرط نزيفها من جميع أنحاء جسدها الهزيل البالي.. فقام بمواجهة الأم التي تخلت عن إنسانيتها في مقابل المتعة والهوى وحب الذات وقتلتها.

والمدهش أنها حقًا اعترفت بجريمتها! وعللت خيانتها زوجها بأنه كان لا ينفق عليها مما رزقه الله، وأنها كانت تكرهه، وأنها كانت تكره أطفاله.

حقًا ما تقول، فهو يعيش لهواه هو الآخر ولا ينفق جنيهًا واحدًا في

منزله، وكانا دائما الصراخ والسب لبعضهما، وقد يصل الأمر إلى التنابذ بالألقاب، ومن ثم التشابك بالأيدي، ولقد انتهى كل ذلك بعد موت طفليه.. ما إن مات الأول والثانية تباعًا حتى هداه الله وابتعد عن كل المعاصي؛ إلا تلك الشيشة التي في فمه دائمًا، وكأنها أنبوب أكسجين يعيش عليه ولا يستطيع التخلي عنه، فالتخلي عنه من وجهة نظره بمثابة فقدانه الحياة، كما يقول.

وكان دائمًا كثير الحكايات عن نفسه ولقاءاته مع القيادات الشعبية المشهورة أمثال سعد زغلول ومصطفى كامل وحتى جمال عبد الناصر ومحمد نجيب، وكيف كانوا يطلبون مقابلته دومًا، ولكني أعتقد أنه كاذب محتال لا أكثر، ويحكي كل تلك الحكايات ليزرع له سيطًا في المنطقة لا أكثر.

وأصبت بتلك القشعريرة الباردة وتثلج الأطراف والفضول لمعرفة هذا الحادث الذي تجردت فيه الأم من كل مشاعر الأمومة من أجل لحظة نشوة زائفة تقضيها في الفراش مع عشيقها الذي ينفق عليها من أجل شهوته وما إن قُبض عليها حتى تركها وفر هاربًا ليجد نشوته وحيوانيته مع امرأة أخرى.

كيف لها أن تنام نومة هادئة؟

أيمكن أن تخدع الصور، وتكذب العين واليد واللسان؟

أيمكن أن تصبح الحياة كلها تمويهًا؟

وكيف يخلق الله للحقائق البشعة وجوها جميلة؟

وما الدافع الذي أخرج من الباطن كل هذا الشر المخفي؟

وما الذي هتك الحجاب وكشف النفس على ما هي عليه؟

الزوج تزوج عليها؟ هذا أمر عادي.. لا ينفق عليها ولا على ابنتها؟ وهذا أيضًا أمر عادي.. لا يدعو الأمر لأن تقتل الطفلة وتمزق جسدها وتصيبها بنزيف في المخ.

أهي غضبة للنفس وللكرامة؟!

وأي كرامة لها؟! لقد كانت خائنة لزوجها ولنجلتها وللإسلام!

لقد اعترفت بأنها كانت على علاقات متعددة برجال متعددين في أثناء وجودها على ذمة زوجها، فهي لم تحفظ لنفسها كرامة..

كيف لا يبدو كل هذا الخراب النفسي على ذلك الوجه الجميل السمح الوديع، المطمئن الهادئ كأنه وجه قديس؟!

تذكرت رجلاً رأيته على حين غرة في يوم من الأيام كان مهذبًا خجولاً تبدو على وجهه ملامح الاحترام والذكاء كان يتكلم بنبرة خفيضة ذات أثر على المتحدث، ثم تبين لي فيما بعد أنه مجنون يعالج بالصدمات الكهربائية.

كان باطن الرجل خرابًا مطلقًا..

وكانت حقيقته الخواء.

وكان فارغًا تمامًا ومجوفًا من الداخل.. إلى هذا المدى يمكن أن تكذب الصور وتخدع الأشكال.

«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أشكالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

في يوم الحادث كانت الأم في أحضان عشيقها تلهو وتلعب في نشوة وتلذذ ليس لهما مثيل بالنسبة إليها، فقد وجدت المتعة والمال، وكانت الطفلة معها في شقة العشيق، وعندما رأت الطفلة هذا المشهد أخذت في البكاء والصراخ فغضب العشيق وغضبت الأم لغضبه، وقامت من فراش المتعة المدنس بالزنى لتعطي للطفلة ركلة في دماغها تصدمها بالحائط المقابل، ومن ثم تنهال عليها لطمًا ولكمًا حتى غرقت الطفلة في دمائها ولفظت أنفاسها الأخيرة.. قتلتها وهي في قمة شهوتها ونشوتها..

كيف واتتها الشجاعة؟

السؤال نفسه يلح علي باستمرار.

كيف تتنكر الحقائق في غير ثيابها..

ويلبس الباطل ثوب الحق؟

ويلبس القبح ثوب الجمال؟

وتلبس الجريمة ثوب الحب؟

وكيف يخلق الخالق هذه العبوات الجميلة لهذه النفوس البشعة؟ كيف يضع السم في وردة ويضع العسل في عقرب، ويخفي المتفجرات في أقنعة من حرير؟

أهذا مصداق الآية: «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ» (72 – «البقرة»).

أهو المكر الإلهي الذي يستدرج به الله النفوس، ويمتحنها بعضها ببعض ليفضح خباياها ومكتوماتها، وليخرج حقائقها ويكشف بشاعتها، فإذا بالمرأة الجميلة جلادًا وإذا بالرجل الدميم ملاكًا..

هي لا تشعر بندم أو تأنيب ضمير.. ويقينها أنها على الحق.

أيمكن ألا يعرف الواحد منا نفسه؟

لقد قال أبو بكر إنه لا يطمئن إلى أنه صار إلى الجنة حتى ولو دخلت إحدى رجليه الجنة، ما دامت الرجل الثانية لم تدخل بعد.. وذلك خوفاً من مكر الله.. خوفاً من أن يكشف الله في اللحظة الأخيرة شرًا مكتومًا في نفسه يدخله به النار الأبدية.. شرًا كان يكتمه أبو بكر في نفسه دون أن يدري به أو

يدري عنه.

وتلك هي ذروة التقوى.. خوف الله..

والتواضع وعدم الاطمئنان إلى براءة النفس ونقائها، وخلوها من الشوائب..

وعدم الغرور بصالح الأعمال..

وخوف المكتوم الذي يمكن أن يفتضح فجأة بالامتحان.. لم يكن أبو بكر من أهل الدعاوى..

لم يكن يدعي لنفسه منزلة أو صلاحًا.. وإنما كان من أهل الحقائق..

وأهل الحقائق في خوف دائمًا من أن تظهر فيهم حقيقة مكتومة لا يعلمون عنها شيئًا تؤدي بهم إلى المهالك، فهم أمام نفوسهم في رجفة..

وأمام الله في رجفة..

وذلك هو العلم الحق بالنفس وبالله..

لماذا وصف الله نفسه بالمكر، وقال: «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ». (30 – «الأنفال»)؟

وما الفارق بين مكر الله ومكرنا؟ وكيف يمكر الله؟

الله يمكر لإظهار الحقيقة.. ونحن نمكر لإخفائها..

ولهذا كان مكر الله خيرًا كله، ومكرنا سوءًا كله..

مكر الله نور ومكرنا ظلمة.. مكر الله عدل ومكرنا ظلم..

شيء واحد في مظهر هذه المرأة العجيبة كان ينم عنها.. هو صوتها..

ذلك الصوت النحاسي المعدني الذي يخرج عاليًا حادًّا رتيبًا على الدوام، وكأنه يخرج من أنبوب معدني وليس من قلب يشعر.

صوت لا يبدو فيه حزن ولا فرح ولا غضب..

صوت مُعَرًّى مجرد من جميع المشاعر..

صوت أقرع أملس لا يشف عن أي انفعال.. يعطيك الإحساس دائمًا بأن هناك شيئًا غير إنساني يتكلم، وإنك أمام جماد ينطق..

تتكلم عن الحب كما تتكلم عن الكراهية.. تتكلم عن رحمة الله كما تتكلم عن انتقامه بنفس الوجه الجامد والنبرة النحاسية الرتيبة.. يخيل لمن يسمعها أن هناك شخصًا آخر يتكلم في داخلها.. شيطانًا.. أو جنًّا.. أو ملقنًا يتكلم من وراء خباء..

والذين يدركون تمام الإدراك لب القضية تصيبهم الرجفة من الرأس إلى القدمين..

إن ما يجري في هذه الدنيا ليس عبثًا..

بل إن الأمر جاد بصورة مخيفة.

والرجل الماكر الذي يسألنا دائمًا.. كيف يذهب إنسان متحضر في السويد إلى جهنم.. كيف يذهب ذلك الرجل الأبيض النظيف الجميل اللطيف أستاذ التكنولوجيا إلى جهنم ويذهب حاج مغفل يبكي عند الكعبة إلى الجنة؟

وهل للطين عندك شأن يساوي أن تحفل به وتعذبه؟ ولو أحس الواحد منهم بالفعل أنه تراب، ولو انطلقت أعماله وأقواله من هذا الإحساس لكان له مع الله حال غير الحال وشأن غير الشأن. ولكنه المكر..

ومهما مكروا.. فالله أكبر مكرًا..

شكرت ذلك الرجل كثيرًا على كل تلك الحكايات العجيبة التي تحدث بها، ونظرت إلى ذلك الحارس من بعيد وعزمت على الذهاب إليه وسؤاله وقمت بقطع الشارع لأصل إليه ومن ثم قمت بتحيته..

وقمت بسؤاله: هل المهندس إبراهيم الطناني هنا؟

وصعقتني إجابته عن سؤالي عندما أجابني عن ذلك المهندس المجنون، لقد كانت إجابته بمثابة تعثري في حجر كبير لم أره ولم أشاهده، نعم لقد كانت صدمة ومفاجأة عارمة لحقت بي وأصابتني!

لقد قال لي:

- هل تسأل عن المجنون هذا؟ الله يقطعه ويقطع سيرته إنه ليس مهندسًا إنه مجنون!

لقد جئت إلى هنا منذ أربع سنوات بعد موت البواب القديم في حادث عجيب وغريب، ويقولون إنه حادث سير حيث اصطدمت به سيارة كبيرة وضخمة وكان الذي يقودها ملثمًا لا يظهر من سحنته إلا عيناه حيث دهسته السيارة وفر هاربًا وكأن شيئًا لم يحدث!

ومنذ جئت إلى هنا وتعرفت إلى ساكني العمارة.. كان أغربهم على الإطلاق، علمت أن زوجته ماتت منذ خمس سنوات مقطوعة الرأس، ويقولون إنه القاتل الحقيقي، وحتى الآن لم تظهر أي أدلة إثبات على أنه القاتل، ولكن كيف يقتلها لا أعلم.

ومنذ ذلك الحين لا تراه كثيرًا بوجهه المرعب وشعره الأشعث ولحيته التي يكاد يتعثر بها في سيره.. إن رأيته أعطيته من العمر القرنين.. ولا أحد يعلم متى ولد وكيف ومتى يأتي ومتى يذهب..

لقد كان يحب زوجته حبًا جمًا وهذا أكبر دليل على أن القاتل شخص آخر.. أعتقد أن اسمها كان رنا، وأنها كانت تبلغ من العمر الكثير والكثير، فلقد دامت معهما العِشرة كثيرًا.

نعم فهذا ما أعتقده، فلها صور في كل مكان في شقته، تلك الشقة المظلمة التي لا تبعث بأي صورة من صور الحياة، فكلما دخلت أنظفها وجدتها مظلمة، لا يفتح نافذة تدخل بعض الهواء النقي أو حتى بصيص ضوء واحدًا يعيد لها جزءًا من حياتها المختفية في طياتها وظلمتها!

تراها صامتة جامدة ميته كلما دخلتها..

تشعر أنك داخل مقبرة.. وأنت داخلها مليئة بالشقوق جدرانها الوردية والغبار يعتلي أركانها.

وهناك تلك الغرفة التي كُتب عليها ممنوع الاقتراب أو اللمس!

ولكني في أحد الأيام وأنا أنظف الشقة انتهزت فرصة دخوله المرحاض وفتحت باب الغرفة ودخلت وفزعت مما رأيت...

انتابني الزعر وهو يقص علي قصة ذلك المهندس، وكنت منتظرًا أن يكمل القصة العجيبة تلك عن هذا الإبراهيم، ومنتظرًا أن يقص علي ما في الغرفة وهو يكمل حديثه، ويقول:

- لقد دخلت الغرفة وانتابني الذعر مما رأيت.. رأيت زجاجات عجيبة وغريبة الشكل تملأ الغرفة وبداخلها سوائل غريبة الألوان والرائحة.. وبعضها يغلي وبعضها مثلج.. وكثيرًا من النباتات

والحشرات موجود في صناديق زجاجية!

وقفز إلى ذهني أنه معمل كيميائي وليس كما يقول ذلك الحارس الذي لا يعلم شيئًا عن علم الكيمياء المعملي على الأقل.. فكل ما قال عن الزجاجات غريبة الشكل هي مخابير وأنابيب اختبار ليس أكثر.

كيف لذلك المهندس أن يعلم عن علم الكيمياء شيئًا؟! هل يكون تخصصه كيميائي؟ لا أعتقد أن هناك تخصصًا في كلية الهندسة يختص بعلم الكيمياء، فنحن في عام 1958، وهو متخرج منذ الثلاثينيات أو حتى العشرينيات، ولم يكن هناك قسم كذلك مختص بالكيمياء، ثم ماذا يفعل بهذا المعمل وماذا يحضر وما فائدة الحشرات والنباتات في المعمل؟

وبماذا يستفيد منها، وما المركب الذي يعده؟

يا الله.. عقلي يعجز عن تدارك كل تلك الأفكار التي أقحمت نفسي فيها رغمًا عني.. ولكن هذه هي طبيعتي العلمية؛ أن أقتحم ما يخص علمي، والفضول يقتلني دائمًا.

هل أبتعد وأترك الأمر وكأن شيئًا لم يحدث ؟

أشعر أني في صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، تائه لا أبتغي أي طريق، ولا أعرف في أي طريق أسير من كل تلك الأفكار والملاحظات التي

دونتها من قول هذا الحارس المختل، ولكنني أصررت على أن أكمل ما بدأت.. يجب أن أعلم كل شيء عن هذه الفتاة وما بعقلها.. وماذا يحضر ذلك المهندس المجنون، وما شأن خطيبها بكل هذا السيناريو العجيب.

كنت في تلك الأثناء لا أستمع إلى الحارس وهو يتكلم وإنما تفكيري طغى على سمعي، ولكن مزق حبل أفكاري وقطعه إربًا ذلك الصوت الأجش، إنه صوت الحارس مزق أفكاري تمامًا، لقد كانت صدمة أخرى!

نعم لقد استرعى عقلي وهو يقول إنه دائم الجلوس أمام صورة زوجته، ولكن شكلها غريب في الصورة تمامًا عن حقيقتها، يجلس أمامها بالساعات، بل والأيام، لا يضع في جوفه كسرة خبز أو شربة ماء!

- في الأيام التي يأتي فيها إلى الشقة يدخل هذه الغرفة العجيبة، ثم يخرج بعدها بعدة ساعات أو حتى أيام، ثم يجلس أمام الصورة متعمقًا فيها نظرًا وحدسًا وذهنًا..

وفي أحد الأيام أخذت ولدي البالغ من العمر أربع سنوات وصعدت لتنظيف الشقة ومعي ولدي وتركته في الصالون وبدأت عملي..

تسحب الطفل من ورائي وذهب إلى الغرفة التي بها الصورة وهو يجلس أمامها، وما إن رأى الطفل حتى هجم عليه وأبرحه ضربًا وركلاً!

ولحسن حظي أني سمعت صراخه مبكرًا، ولزم مني الأمر خمس دقائق لكي أخلصه من جبروت ذلك المجنون، فهو رغم كبر سنه فإنه قوي البنيان وشديد الصحة والعافية، وكأنه شاب في ريعان شبابه..

ما الذي في الصورة؟

ولماذا يجلس بالساعات محملقاً فيها؟

ثم لماذا كاد يقتل ذلك الطفل البريء؟

وما علاقته به؟ وما سبب كرهه للطفل؟ ولماذا لم يفعل ذلك بأبيه؟ وإن كان يصعد إلى الشقة دائمًا هل المشكلة في الأطفال؟

ولكنه قد يكون قتله بالفعل، لأن الحارس يخفي وقائع الجريمة، ومن المؤكد لأنه يخاف من شيء ما، قد يكون حقاً أنه القاتل فمن ينقض على طفل ويبرحه ركلاً وضربًا ولكمًا لا يمكن أن يكون نجا الطفل بتلك السهولة بالمرة، فالأم ضربت ابنتها قدمًا واحدة أصابتها بارتجاج في المخ، وهنا ركل ولكم ولم يحدث للطفل شيء.. من المؤكد أنها كذبة جديدة.

الأمر معقد جدًّا أكثر مما تخيلت، والحقيقة تائهة في ظلمات عميقة وصعبة المنال، بل أعتقد أنها مستحيلة المنال.

صمت قليلاً، ثم قال:

- ولماذا تسأل عنه؟

قلت متلعثمًا:

- لا لشيء.. إنه صديق قديم لا أكثر، وقد كنت مسافرًا وعدت منذ وقت قريب وأريد رؤيته.

قال لي:

- لا أعلم ميعادًا محددًا يأتي فيه، وإنما يأتي كثيرًا ولا يغيب. وأعطيك نصيحة غالية بأن تبتعد عنه، فهو لم يعد مثلما كان.. لقد جُن تمامًا.

تركته وسرت متجهًا إلى سيارتي والتفكير يقتلني ويقتل عقلي في ما قاله عن هذا المهندس المجنون، أو لا يغالطني المصطلح إن قلت العالِم المجنون. أفكر في كل كلمة قالها لعلي أكتشف الحقيقة عن الألغاز التي تتراقص أمام عقلي.. يجب أن لا أذهب من هنا، يجب أن أقابل هذا المجنون..

يجب أن أعود وأنتظر أمام العمارة لعلّي أراه حقًا أو أستطيع دخول الشقة دون علم أحد ولو حتى حارس العقار.

– 4 –

مفاجأة مدهشة.. وامرأة عظيمة الجمال

في الحال غيرت اتجاهي وعدت إلى العمارة مرة أخرى، ولكن وقفت بعيدًا حتى لا يشك أحد في أمري أو يراني الحارس ويشك في.

والآن أمامي خياران؛ أن أصعد إلى الشقة بعد أن ينام هذا الحارس، أو أن أنتظر هذا العالِم المجنون، ولكن ماذا إن لم يجبني عن شيء، أو حتى قد يقتلني وتغيب الحقيقة ولا يعلم بها أحد..

لا.. الخيار الأول أفضل.

جلست في السيارة تدور في ذهني كل تلك العجائب والغرائب. أشعر أني في فيلم كارتوني محكم الإنتاج والتمثيل يجذب كل من يراه لهاوية لا يخرج منها، أو قد يكون فيلم رعب تبحث فيه عن الخلاص ومعك الحقيقة التي لن تجدها ولو بحثت عمرًا كاملاً عنها.

تجاوزت فترة انتظاري ذلك الحارس حتى ينام السبع ساعات، وما زلت جالسًا في سيارتي أشعل لفافة تبغ من الأخرى وما زلت منتظرًا وأفكر وأفكر.

نظرت بطرف عيني على باب العمارة فلم أجد البواب.. أخيرًا

سنحت لي الفرصة لدخول هذه المغـارة المليئـة بالأسـرار.. لـدخول المـستودع الخفي.

خرجت من سيارتي مسرعًا متلفتًا عن يمـيني وعـن يـساري حتـى لا يراني أحد.. ووصلت إلى باب العمارة وتسللت بنظري في جميع الأرجاء خوفًا من ظهور الحارس فجأة، ثم صعدت درجات السلم كـأني طفـل يـتعلم الـسير حتى لا يسمع أحد وقع خطـواتي متباطئًـا حتـى وصـلت إلى الطـابق التاسـع، ولكن أمامي أربع شقق في هذا الطابق أيها تكون شقته؟ هل أطرق باب أحـدهم وأساله؟ لا.. قد يـشك في أمـري.. سـأبحث عنهـا بنفـسي. وتـذكرت كلمـات الحارس أن الشقة مظلمة تمامًا لا يدخلها هواء أو بـصيص ضـوء، فـإن كانـت هكذا من الداخل فستكون حتمًا كذلك من الخارج.. نعم..

وجدتها.. إنها تلك التي في نهاية الردهة القرمزية تلك. مظلمة ذات باب أسود اللون..

سرت متسحبًا إليها ووضعت أُذني على الباب لعلِّي أسمع أي صـوت من داخلها ولكن ليس هناك أي صوت يصدر من الـداخل. اقتربـت أكثـر مـن الباب حتى بات ملاصقًا لصدري وأمسكت المقـبض بيـدي لاصـقًا أُذنـي بـشدة لعلي أسمع شيئًا، ولكن لا أسمع أيضًا أي شيء، وكان أمامي حل وحيـد وهـو كسر الباب لكي أدخل هذه المغارة.. مغارة الأسرار، ولكني أفيق من غيبوبتي

وأنا داخل الشقة بالفعل.. لقد كان الباب مفتوحًا بالفعل، وأنا كل ما فعلته أن دفعته بجسدي فقط!

وها أنا الآن داخل المغارة.. قمت ونفضت الغبار عن ملابسي وتحسست طريقي من شدة ظلمة الشقة أبحث عن أي ضوء لا أرى أمامي ولا تحت قدمي.

لا يوجد أي مفتاح للضوء هنا.. أخرجت من جيبي علبة ثقاب وأشعلت واحدًا ورأيت أمامي كآبة منظر لم أطالع مثلها في حياتي، لكن الشقة ليست مليئة بالأوساخ والديدان، وإنما نظيفة إلى حد ما، وليست تجويفًا رمليًّا أجرد جافًا.

وقد كان قول الحارس حقًا صادقًا عن تلك الشقة المليئة بالضباب كما أرى. ودخلت الردهة عن يساري حيث هناك غرفتان وأرى الردهة وكأن الباب مستديرًا كالكوة مدهونًا بالأخضر وفي وسطه تمامًا مقبض أصفر اللون نحاسي التكوين، والأرض نظيفة مبلطة مليئة بالكراسي والمشاجب.

دخلت إحدى الغرفتين وجدتها غرفة نوم؛ فراش ودولاب من أخشاب متينة ولكنها من طراز حديث جدًّا لم أعهد مثله في حياتي ولم أره من قبل.. وأجد الكراسي من البامبو والأبنوس مزركشة باهرة الجمال في طلعتها وكأني في شقة عالم في الفن والإبداع.. في الجمال.. مطلع على كل

حديث ومتطور.

ودخلت الأخرى فوجدت بها مكتبًا كبير الحجم أسود اللون مستديرًا، بسحبة واحدة ينقلب إلى فراش آخر يقبع بداخله.. حقًا إنه تصميم شيطاني بديع المنظر واقتصادي في المساحة.

ووجدت أمام المكتب صورة لامرأة جميلة الطلعة بريئة الوجه كأن وجنتيها قطعتان من الثلج الناصع البياض، دقيقة الملامح، لها شعر حريري بني اللون، وأصابع بيضاء طويلة ماهرة وضحكة جميلة كالفاكهة الطازجة الجميلة الدافئة. تمتلك جسدًا لا تجد فيه عيبًا ولا خطأ.. ما تشتهيه تجده كما تريد وكما تحب، ليس عليك إلا أن تتطلع إلى هذا الجمال الباهر وتشحذ منك عقلك وفكرك وكيانك ونبض قلبك.

أذهلتني الصورة كثيرًا!

جلست على مقعد خلفي أطالع هذا الجمال وهذا الرداء وردي اللون التي ترتديه المرأة وعقلي يحدثني عن براعة راسم الصورة!

وغاب ذهني وعقلي وأنا أحملق في الصورة، وأصبحت تائهًا لا أشعر بما حولي وكل عقلي وبصري وجسدي وشعوري وسمعي متجهة إلى الصورة فقط.. امرأة تطالعني لم أرَ لجمالها مثيلاً ووجدتها تحدثني: إني لا أحب

الأطفال، أقتلهم كلهم، أنـا لا أحـبهم، إنهـم يقتلـونني.. وأنـا أنـصت لتلـك الموسيقى والسيمفونية الرائعة الـتي تعـزف علـى أوتـار أحبالهـا الـصوتية.. صوت ساحر أخاذ. وأراني أجيبها: لن يعيش طفل بعد الآن.

- 5 -

الجنون كاد يقتلني.. وتلك المرأة ثانية

أفقت من غيبوبتي لأجد نفسي في منزلي وفي فراشي ومغطى بلحافي

هل كل هذا حلم؟ هل كنت أحلم؟

كيف ذلك وأنا أتذكر كل تلك التفاصيل والأحاديث التي قيلت لي؟!

لا لا.. الحلم ليس كذلك لا.. هذا ليس حقيقيًا.. أنا لا أحلم أبدًا!

ذاكرتي ليست قوية لتذكر كل تفاصيل بداية الحلم, لكن من المستحيل تذكره من بدايته تمامًا لأن عقلي يهمل كل الأحداث غالبًا لأنها صعبة التحمل فيحذفها جميعها حتى لا أجن.. وطبقة الحلم، أي عمق الحلم، يتم بقياس يسر أو صعوبة النوم إلى الاستيقاظ التام، فحتى إن كان الحلم سطحي البداية فستكون مندمجة مع أحداث الواقع بصورة أكبر.. لو كان العمق أكبر فسوف أرى أحلامًا بدايتها صعبة التذكر وهكذا. ولكني لم أكن نائمًا ولم يكن نومي ثقيلاً حتى يهيئ لي كل هذه الأحداث والإسقاطات.. لو كان الحلم واقعيًّا أو أنه مثلاً سوف يحدث بعد ذلك فستكون البداية تحت رحمة الذاكرة تمامًا، قد أتذكر أو لا، والحلم تكون بدايته غير مرتبة، أقصد عشوائية.. ولكن كل ما فعلته كان مرتبًا ترتيبًا منطقيًا لا يحدث إلا وأنا في

قمة نشاطي الذهني.

ولن تكون أيضًا متلازمة إدراك واختراع.. أي التلاحق بين أن عقلي يخلق ديكورًا وأحداثًا وإسقاطات وشخصيات الحلم وأن يدركها الإدراك التام، وفي البداية لا يرى أو يقرأ إلا فراغًا، ويصبح التذكر صعبًا للغاية، والاختراع عندما يأتي أولاً يجعل الإدراك غير كامل أو مشوش.

هذه معلوماتي عن الحلم، وجميعها تؤكد أنه ليس حلمًا أبدًا.. نعم، فما رأيت رأيته حقًا، وأعتقد أني لا أحلم لأني لم أرَ تلك الشخصيات ولا الأحداث من قبل، ولا يمكن أن يكون عقلي بكل تلك العبقرية حتى يخترع ويدرك كل ما رأيت.

هالني أمر غير طبيعي أراه وأنا طريح فراشي!

لا.. لا يمكن أن تكوني أنتِ أنتِ حقيقة لا.. لا.. لا يمكن!

أنتِ التي في الصورة في شقة العالم إبراهيم الطناني!

نعم إنها أنتِ بجمالك الأخاذ.. من الذي جاء بك إلى هنا؟!

وكيف تكونين واقعية؟ لا.. أنتِ صورة لا أكثر، نعم أنا أحلم مرة أخرى!

مرة أخرى!

أنا لا أحلم!

لا.. أنتِ حقيقة. وفاجأتني بقولها التي قالته لي عندما كنت أطالعها في الصورة مرة أخرى.

اقتل كل الأطفال.. أنا أحبك.. ومن أجلي اقتلهم.

لا.. لا لن أقتل أي طفل، إنهم ملائكة الرحمة، لا لن أقتلهم لا لا.

- 6 -

حلم غريب ونسيان واضح

يخيم الصمت على المكان الآن بعد الانفجار المدوي الذي أحدثته تلك الخبيثة المجنونة داخل منزلي.. ولكن من الواضح أني أنا فقط من رأيت وشعرت بالانفجار!

وأعتقد جازمًا بعد ما رأيت أني الوحيد أيضًا الذي رأيته وكل شيء يتطاير وينفجر أمامي وأنا مذهول مشدوه من المنظر ومن عِظمِ المشهد لا أنطق ولا أتكلم ولا حتى يستطيع لساني الحراك من هول الفزع الذي أحاط بي.

لا أدري ما الذي أصابني..

منذ ما يقارب اليومين فكل طفل حديث الولادة أو حتى يبلغ من العمر سنتين أو ثلاثًا أقتله من أول مرة أراه في أي مكان كنت!

لا أعلم الغيبوبة التي تصيبني وحالة الإغماءة الثقيلة التي أذهب فيها بعد قتل الطفل، وبحركة خفيفة تحمل في طياتها كثيرًا من القوة بحيث تستقر أصابعي المتصلبة في عنق الطفل فتودي بحياته في لحظة واحدة لا يشعر بها الأب أو الأم ولا أي شخص بجانبي وفجأة مات الطفل.

أتذكر هذا اليوم جيدًا حينما كنت جالسًا في غرفتي لا أستمع إلى

صوت الأذان ولا إلى صوت القرآن حينما يتلى علي عند أي شيخ، فقد علمت ما أصابني، ولكني لا أسمع صوت القرآن وحينما أستعد لقراءته لا أرى كلماته أو حتى الحروف وكل ما أحفظه منه لا أتذكره أبدًا.

جلست في غرفتي ذلك اليوم وأطفأت النور وجلست في ظلام حالك أفكر وأحاول أن أتذكر بعض آيات من القرآن ولكن لا جدوى من كل ذلك.. أتذكر عدد الأطفال الذين سفكت دماءهم بيدي وأنا لا أشعر، ولماذا الأطفال خصوصًا وحديثي الولادة وحديثي الظهور للحياة؟!

لا أعلم ولا أرى أي إجابة تدور بخاطري، ولم يفلح ما تعلمته وعلمي بشيء.. ولا أصدق أني ممسوس من الجن وأني تتلبسني ملكة من ملوك الشياطين حقيقة لا أصدق كلمة مما قيل، فتعمقي الشديد في العلم والعلوم جعلني أصدق أن كل الملموس موجود وأن غير ذلك لا وجود له..

إلا الله سبحانه وتعالى.

وفي أثناء استغراقي في التفكير وعقلي الذي كاد يجن، سمعت صوتًا ينادي علي مرة، فقلت: من؟ ولا أحد يجيب.. فتصورت أنه يهيئ لي وأنه من فرط تركيزي وانشغالي في الأمر، ولكن وأنا بكامل استيعابي سمعت مرة أخرى الصوت ينادي علي، ولكنه ليس صوت حفيدتي.. فهو صوت رتيب نحاسي لا يوجد به أي مظاهر للحياة. وقلت للمرة الثانية: من أنتِ؟ قالت:

أنت حبيبي ولن يأخذك مني أحـد. فقلـت: مـن أنـتِ؟ وهنـا، وبعـد انتهـاء كلماتي، وجدت نورًا أحمر يضيء الغرفة وإنسانة بارعة الجمـال تطـل علـي من خلال هذا الضوء وتقول لي: اقتل كل الأطفال أنا أكرههم!

إنها نفس السيدة التي طالعتها في الصورة!

فقلت لها:

- كيف دخلتِ غرفتي وكيف أشعلتِ هذا الضوء الأحمر الوهاج؟

قالت لي:

- كيف وأنا من قتلت جميع الأطفال بيدك أنت لأني أكرههم!

- لماذا أيتها المجنونة؟!

- لأنهم ملائكة الرحمة، نعم إنهم ملائكـة الرحمـة، وأنـا أكـرههم وأكره الملائكة.

- ولكنهم أطفال..

- لا إنهم ليسوا أطفالاً، إنهم ملائكة، وإن لم أقتلهم فسيقتلونني.

- ابتعدي عني لا أريدك ولا أريد رؤيتك مرة أخرى.

- ههههه.. لن تستطيع فأنا أتحكم بحياتك، أنا من لا أجعلك تسمع الأذان ولا القرآن ولا تشتم رائحة البخور ولا تستطيع قـراءة القـرآن إنــه

أنا.. ولن تجدهم ولن تـراهم مجـددًا.. أنـا أتحكـم في حياتـك الآن، ولـن تستطيع الفرار مني.

وهنا أمسكت بشيء لا أعرف ما هو وقذفتها به، وما إن قذفتها حتى وجدت الغرفة تشتعل بي وكل الأشياء التي بها تتطاير وتنفجر، وكـل شـيء بالشقة كذلك.. وأنا أهرول وأبحث عن مفر، وتعالت صياحاتي وصـراخي ولا حياة لمن تنادي، وهنا تحشرج صـوتي وشُـل لـساني ولم أقـدر علـى الحـديث وانتابني الهلع والفزع، ولا أقوى على التفكير في شـيء. وفي لحظـة كـل ذلـك اختفى ما إن دق جرس الباب!

وأنا في حالتي المزرية تلـك تحسست طريقـي لأفـتح بـاب الـشقة ولا أدري ماذا يحدث، إنها أختي وطفلها الصغير تقابلني بابتسامة رقيقة وتنظر إلي مستغربة في الوقت نفسه، وقالت لي: «خد ابن أختك». في الحقيقة خفت أن أقتله، ولكن ماذا أفعل فهو في يدي الآن وأنظر إليه ووجدت يدي تمتـد إلى عنقه، وأحاول أن أبعدها.. ولكن لا جدوى.

ولكـن المكـان تحـول إلى اللـون الأبـيض فجـأة واختفـت أخـتي وأنـا والرضيع فقط وأنا أراه يخرج منه ضوء شديد لا تقـوى عينـاي علـى أن يفتحـا جفنيهما لتريـا مـا يحـدث. ولكـني وجـدت نـارًا شـديدة تخـرج مـني أنـا، والرضيع يصرخ في وجهي.. ابتعد فليس بك قوة لمواجهة هذه الحرب. ورأيت

إنسانًا، ولكن بجناحين كبيرين جدًّا يخرج من الرضيع!

وها هي هذه الحسناء الجميلة تخرج من النار ولكن بحجم مضاعف بألف مرة وتمسك بيدها حربة وتتجه نحو هذا الملاك وتحاول قتله ولكن يدافع ويراوغ ويركض ويهرب ويكر ويفر ويمسك بسهامه ويقذفها في اتجاهها وهي تهرب وتتعالى الصرخات والصيحات وتنهال علي النار ولكن يبعدني عنها الضوء..

وهنا رأيت الملاك ينهال على هذه المرأة بالطعنات ثم يقرأ القرآن بصوت لا مثيل له ولم أسمع مثله من قبل.

ها أنا أسمع القرآن ليس كما الأول وأردد ما يقول.. لقد تذكرت ما يقول في وسط هذه الحرب.. لقد عدت لطبيعتي، لقد رجعت كما كنت.. إنه أنا.

ونظرت فجأة ووجدتها تلفظ أنفاسها الأخيرة في وسط لهيب وزئير وهول وجحيم مرعبين، وما إن اطمأن ذلك الملاك لموتها واحتراقها جاء وقال لي: ستعود كما كنت لا تذكر أي شيء مما حدث، ولن تتذكر أي شيء من يومين مضيا.. وستعود أنت.

وهنا أفقت من غيبوبتي وجلست أعتصر ذهني لأذكر أي شيء، ولكن

لا أتذكر شيئًا، أكان حلمًا أم ماذا؟ نعم فهو حلم لأني لا أتذكر شيئًا مما حدث ومما كان، وكل ما أتذكره صوت حفيدتي وهي تصرخ باكية.

وهنا قطع حبل أفكاري صوت أذان العصر وأيقنت أني لم يحدث لي شيء.

– 7 –

ماضٍ مبين أشهده الآن

كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، وكنت قد شارفت على النوم منهكًا من كثرة تفكيري فيما يحدث لي. أحاول تفسير ما وصلت إليه من تجارب قابلتني لأبحث عن الحقيقة. وفي أثناء ذلك غرقت في نوم عميق وحلمت حلمًا عجيبًا ما زلت أتذكره حتى الآن..

كان يوم الأربعاء الموافق **14/3/1908** حلمت أني رأيت فتاة لا أعرفها من قبل عند محطة السيارات وكانت الساعة تشير إلى السابعه والنصف وخمس دقائق صباحًا.. كنت ذاهبًا إلى الجامعة في اليوم التالي، وكنت أحمل حوائجي.. رأيت هذه الفتاة، ثم بعدما مررت بسيارتي وهي في السيارة المقابلة لي تجلس مثلي تمامًا ولكن مقابله لي ورأيتني أدون في نوتتي بعض الأسئلة التي ستأتي في امتحان اليوم.. وحينها استيقظت مفزوعًا من نومي حائرًا أكثر وأكثر، وكانت الساعة تدق السادسة والنصف وخمس دقائق صباحًا.

قمت واستحممت وارتديت ملابسي وأخذت حوائجي، وفي أثناء استقلالي سيارتي ذاهبًا بها إلى الجامعة تذكرت الأسئلة التي كنت أدونها

في حلمي.

أخرجت مدونة صغيرة من جيبي وكتبت فيها الأسئلة حيث كانت تمر أمام ناظري وكأني أحفظها عن ظهر قلب، وحينما فرغت من تدوين الأسئلة كنت قد شارفت على الوصول، ولكن نفد مني البنزين.

وعندما وصلت إلى المحطة كانت الساعة تشير إلى السابعة إلا الربع. دخلت لأضع البنزين، ومر بعض الوقت والساعة تشير إلى السابعة وتأخر العامل والساعة تشير إلى السابعة والنصف وخمس دقائق.. وأضرب بعيني النظر يمينًا لأجد الفتاه التي حلمت بها تحملق في باستغراب لشكلي.. فأنا دائمًا غير مهندم الشكل، أشعث الشعر طويل اللحية، وحينما ركزت نظري جيدًا فيها اكتشفت واستيقنت أنها هي التي حلمت بها أمس، ولا أعرف حقيقة شعوري حينها.

فزعت من تلك الصدفة البحتة واستغربت لتحقق حلم بتلك الموضوعية والكيفية، فالفتاة كانت ترتدي نفس الملابس التي كانت ترتديها في الحلم، وجلست ساندا ظهري على المقعد، وهي مندهشة لا تفرغ أن تنظر إلي.. فتحت النوتة خاصتي حتى أدون ما يحدث، ورأيتها تستعد وتجلس نفس الجلسة التي جلستها.. يا الله!

وأقسم بالله وجدت يدي تدون الأسئلة دون أن أشعر أني دونتها.. أنا

أحملق في هذه الصدمات المتتالية التي تحدث أمام عيني مستغربًا منفزعًا منها.

وصلت إلى الجامعة ولا شيء في ذهني إلا ما حدث أمس.. والآن دخلت الامتحان وألقيت نظرة على ورقة الأسئلة لتزداد دهشتي وحيرتي وفزعي وأنا أحملق في الورقة.. إنها نفس الأسئلة التي حلمت بها والتي دونتها، أخرجت المدونة من جيبي وقارنت الأسئلة في ورقة الأسئلة بالأسئلة في مدونتي.. هي تمامًا بترتيبها بأخطائها المطبعية وبنفس الخط المكتوبة به ورقة الأسئلة لقد قمت من نومي لا أرى شيئًا.. وكتبت الأسئلة في السيارة التي كانت تهتز وتتراقص من أثر تهشم الطريق.. ويخرج خطي لكي يعلن لي أنها مكتوبة على آله كاتبة، وليس خطاً يدويًّا أبدا!

من شدة الصدمة التي قد شارفت على أن تودي بحياتي قمت من مقعدي وخرجت من الامتحان دون أن أكتب إلا كلمة واحدة على كراسة الإجابة: «سيدتي الدكتورة، كنت قد علمت الأسئلة أمس، فلا داعي أن أجيب عنها».

ذهبت إلى البيت تصيبني حالة من الهذيان الكلي، ونمت لا أعرف أي سبب لما يحدث لي، هل أضحك على نفسي وأقول إنها صدفة؟ أي صدفة تجعل كل هذا حقيقيًّا؟

نمت ونمت وغطت في نـوم عميـق.. وفي أثنـاء نـومي حلمـت بابنـة خالتي تموت غرقًا في حمام سباحة، ولكن لم تمت غرقًا وإنما ماتـت فزعًـا في أثناء وقوعها في حمام السباحة، ومن شدة الفزع توقـف القلـب تمامًـا قبـل أن تصل إلى ماء الحمام.

أفقت من نومي مفزوعًا خائفًا، وفي أثناء ذلك كان هاتف منزلي يرن.. أمسكت بالهاتف بيد مرتعشة خائفة لأجد الهاتف يعلن اسم خالتي لأجدها غارقه في البكاء وتقول إن ابنتها ماتت غارقة في حمام السباحة!

أغلقت الهاتف، ومن شدة الصدمة التي وقعت علي قمت وذهبـت إلى الفندق بلباس نومي شاردًا طوال الطريق لا أعرف سببًا لما يحدث لي.

وفي أثناء تـشريح جثتهـا وقفـت أنـاظر الطبيـب الـذي يقـوم بعمليـة التشريح وقد كان بالصدفة صديقًا لي متخرجًـا منـذ 3 سـنوات، ولم يجـد أن سبب الوفاة الغرق، وإنما الموت إثر صدمة مفزعة توقف على أثرها القلب قبل الوصول إلى الماء.. لأنهم أخرجوها من حمام السباحة بعـد دقيقـتين فقـط مـن انزلاقها ووقوعها في الحمام، وهذا الزمن لا يـؤدي إلى الوفـاه بـأي حـال مـن الأحوال.

خرجت من غرفة التشريح ووجدت أن دكتورة المادة التي كنـت أؤدي اختبارها اليوم موجودة في موقع الحادثة، وتقول لي:

- لماذا لك كراستان إجابة إحداهما عليها إجابة أسئلة الاختبار والأخرى مكتوب بها جملة عجيبة «سيدتي الدكتورة، كنت قد علمت الأسئلة أمس، فلا داعي أن أجيب عنها»؟

قلت لها:

- كراستان؟!

- نعم.

- والكراسه الأخرى.. كيف وصلت إلى حضرتك؟

- وجدتها أمس بجانب المكتب ولكنها ليست كراسة، إنها ورقة مكتوب عليها اسمك وإجابات الأسئلة. وما جعلني أفزع أن لا أحد يعلم الأسئلة التي وضعتها أول أمس، ولكن كيف لك أن تعلمها؟

وقع حديثها علي كأني أغرق أو تائه في صحراء لا أعلم بماذا أجيبها، أأقول لها الحقيقة أم أكذب عليها؟ وإن قلت لها الحقيقة هل ستصدقها؟

قلت لها:

- دكتورة.. هل لي من وقت حضرتك ساعة غدًا لأوضح لكِ الأمر؟

- بلى.

وتركتني وذهبت والغموض والتفكير يغرقها هي الأخرى، وفي وسط

كل هذا ذهبت لأدفن ابنة خالتي والتفكير يكـاد يقـتلني مـا الـذي يحـدث في داخلي وكيف أعرف أفكار الآخرين وكيف شاهدت الأحداث على ماهيتـها؟

وفي أثناء عودتي إلى البيت قابلت في نفس السيارة التي كنت أسـتقلها الفتاة التي رأيتـها صباحًا فنظرت إليـها مستغربًا ووجدتـها تبتسم لي وتقول:

- كيف حالك؟
- الحمد لله!!
- هل لي من وقتك بدقائق معدودة؟
- أكيد.. نعم.. لماذا؟
- حدث معي شيء عجيب اليوم وأردت أن أعرف منك الحقيقة.
- ولماذا أنا؟
- لأنها معك أنت وحدك.

أوقفت السيارة وجلست وبصحبتي هذه الفتاة في أحد «الكازينوهـات» وبدأنا بالحديث، وبدأت هي أولاً قائلة:

- لقد رأيتك أمس ولكنني لم يسبق لي أن أعرفك.. لقد حلمت بك اسمك أ. رمضان، كلية العلوم، هل هذا صحيح؟
- ها!!

وهذه كانت إجابتي سألتها:

- في أي يوم ولدت؟
- السبت في الأول من يوليو الساعة الرابعه فجرًا
- ها!

إنه نفس وقت ولادتي باليوم والساعة والسنة!

وتحول الأمر إلى حالة من الحملقة.. كل منا يحملق في الآخر لمدة من الوقت تزيد على ربع ساعه تقريبًا، طرقت ذهني حينها عدة أفكار عجيبة، ولكنها صحيحة، حيث كانت مرتبطة بعدة تجارب وأبحاث اطلعت عليها في أثناء قراءتي في هذا المجال غير المعلوم لي.

(كيف يحدث أن أنطق كلمة واحدة في الوقت نفسه التي ينطقها فيه إنسان آخر؟

كيف تحس الأم وهي نائمة، بل وهي مستغرقة في النوم، أن ابنًا لها سيقع من فراشه وتصحو منفزعة وتهرع إلى فراش ولدها فتدركه قبل أن يسقط فعلاً؟

كيف ينهض الأب يشكو من وجع في ضرسه عند منتصف الليل، ثم يأخذ قرصًا من الأسبرين وينام، وهو مندهش لهذا الوجع المفاجئ لضرسه

السليم، وبعد أيام يتلقى خطابًا من أحد أبنائه الذين يعيشون بعيدًا عنه من أنه عند منتصف الليل شكا من صداع ولم يسترح إلا عندما أخذ قرصًا من الأسبرين، ويقول الابن في رسالته أو مكالمته إن ضرسه مسوس ولا بُدَّ من خلعه؟

كيف أفسر لنفسي أني عندما كنت في ألمانيا، في برلين، وكنت أشاهدها لأول مرة في حياتي أني تصورت إذا اتجهت إلى اليمين فسوف أجد محلاً للعب الأطفال، واتجهت إلى اليمين بالفعل لأجد محل اللعب؟!

وكيف حلمت نفس الحلم مع تلك الفتاة أمس وهي لا تعرفني وأنا لا أعرفها ولم يسبق أني رأيتها، وأن أعلم تمام العلم أني لم أرها مطلقًا في حياتي، وذلك لأني لا أنسى أي شخص قابلته في حياتي وإن مر بجانبي دون أن يتحدث إلي؟!

كيف لي أن أعلم الإجابات عن الأسئلة التي وضعتها الدكتورة ولا أحد يعلم الأسئلة إلا هي؟!

بأي شيء يهتدي الحمام الزاجل؟

بالنجوم؟ بالرطوبة؟ بجاذبية الأرض؟ بماذا؟

ما الذي يجعل النمل يهتدي إلى أوكاره؟ كيف أفسر تجربة رأيتها

بأم عيني عن علماء أخذوا صغار قطة ووضعوها بعيدًا عن أعينها، وكانوا كلما وخزوا أحد صغارها بدبوس رأيت الأم تهلع وتنتفض مع أنها لا تراها ولا تسمعها!

ولما ذبحوا أحد صغارها أخذت في النواح والصراخ والبكاء، مع أن المسافه بينها وبين صغارها في هذا الوقت كانت تقدر بالكيلومترات. ما التفسير لذلك؟

راودتني كل تلك الأسئلة وأنا جالس أحملق في الفتاة، وقاطعني صوتها:

- هو انت نمت ولا إيه؟!
- ها؟!

قلت لها:

- أنا حقيقة لا أعرف ما الذي حدث، ولماذا رأيتني ورأيتك!

وقصصت لها قصة أسئلة الاختبار وقصة وفاة بنت خالتي وصدقتني، ولو كنت قصصت هذا الأمر على أي شخص آخر قد يعتقد أني مجنون ويطلب لي مستشفى الأمراض العقلية، ولكنها صدقت، لأنها رأت بأم عينيها.

وحدث معي أيضًا شيء غريب.. لي جاره تسكن بجواري في السكن،

وفي يوم أحسست تجاهها بشعور غريب أهو حب أم ماذا؟

قمت من مكاني لأصارحها بحقيقة شعوري مع العلم أني لم أرها قبل ذلك ولكني شجعت نفسي، وقبل أن أصل إلى الباب فتحت الباب وقالت لي لقد جئت لتخبرني بأنك تحبني إذًا دعني أفكر في الأمر.

وأيضًا حدث معي أمر أغرب من الخيال.. كنت قد ذهبت إلى البنك في أحد الأيام لأخذ بعض النقود، وهناك جلست أنتظر دوري، فجلس بجانبي رجل عجوز، وقال لي: ما الرقم في هذا الشيك؟

نظرت فوجدته فارغًا، فقلت: لا شيء، فقال: بل هي خمسون ألف جنيه!

أخذت الأمر على محمل الفكاهة، إلى أن جاء دوره وقدم الشيك إلى الموظف، وإذا بالموظف يخرج مبلغ خمسين ألف جنيه يعطيه للرجل.

اندهشت وفزعت ثم ذهب الرجل وجاء بشرطي ووقفا أمام الموظف وأمر الموظف بإخراج الشيك مرة أخرى، وعندما نظر فيه الموظف ووجده فارغًا لم يحتمل الصدمة ومات في الحال!

والآن هل هناك تفسير منطقي لكل ما يحدث إلا أنه التخاطر وقوة غريبة في عقلي هي ما تحرك كل هذه الأمور أو تعلمها قبل حدوثها أو تنشئ

تخاطرًا مع إنسان آخر فأراه وأعرفه وأعرف ما يدور في رأسه قبل أن ينطق أو حتى أراه هل هي قوة خفية تتلبسني وتوجد في عقلي؟

ما تفسير أن هتلر إذا نظر إلى أحد الناس فإنه لا يستطيع أن يقاومه، لا يستطيع حتى أن يناقشه؟ فما الذي في عيني هتلر؟

ما «البلاسوبيا» ذلك الدواء العجيب الذي هو عبارة عن ماء وتقوم شركات الأدوية إذا أنتجت دواءً جديدًا بصنع «بلاسوبيا» منه، أي ماء يحمل لون وطعم الدواء.

وفصل المعلولين إلى فريقين أحدهما يأخذ الدواء الحقيقي، والآخر يأخذ «البلاسوبيا» على أنه الدواء الحقيقي، دون علمهم، فإن كانت نتائج «البلاسوبيا» ناجحه بنسبة **80**٪ كان الدواء الأصلي فعالاً.

ما الذي في عقول الناس يجعلهم يستشفون بـ«البلاسوبيا»؟ ما الذي يحدث حولي؟

لا أعلم حقيقة الأمر، وأنظر إلى كل شيء حولي وأراه يختفي ويتلاشى خطوة خطوة وأنا لا أعلم ماذا يحدث وماذا يدور حولي في اختفاء الأبنية والعقارات والسيارات والأشخاص وأشعر بصداع في رأسي يكاد يفجره..

وها أنا أفيق من غيبوبتي مرة أخرى لا أفهم شيئًا بكامل هيأتي وبعمري الطبيعي، ولكن الحلم كان هذه المرة وأنا طالب.. وقد حدث معي هذا الأمر بالفعل، ولكني لم أكن أدري حقيقته وجعلته يمر مرور الكرام.

لا أستطيع إدراك شيء، ما الذي أصابني؟ أنا تائه حقًا، أنام.. بل أدخل في إغماءة ثقيلة، ومن ثم أفيق من الغيبوبة بعد حلم عجيب..

حلم واحد؟!

لا.. إنها مجموعة من الأحلام يخترق بعضها البعض ويدخل في بعضها، تمتزج وتندمج لتخرج حلمًا لم أكن موجودًا فيه في أثناء الماضي ولكني عايشته!

نعم ابنة خالتي ماتت ولكن ماتت مفزوعة ولم تمت غارقة، وهذا ما كنا لا نعرف عنه شيئًا عندما ماتت!

نعم حللت الأسئلة كاملة بعد مذاكرة عميقة وكنت أعلم الأسئلة لأني دونتها بخاطرتي ولكن لم أطلع عليها إلا في أثناء حلمي!

ماذا هناك؟

ما الأمر؟ لماذا أحلم بالماضي الآن؟ ما الذي يحدث؟

ولماذا أحلم بما رأيت حقًا منذ خمسين عامًا؟

وآن لذاكرتي أن تحمل هذا وذاك.. ما الذي في رأسي؟

ثم كيف أكون في شقة هذا العالِم وأنا في كامل وعيي وعقلـي، ومـن ثـم أصحو لأجد نفسي في فراشي مغطى بلحافي؟!

– 8 –

مستقبل قريب يأتي ليسألني

اليوم هو السبت الموافق **24/5/1958** لم أنم منذ أيام ولا أستطيع النوم لما يحدث حولي وما يحدث لي. جلست أتجرع قدحًا من الشاي وأشعلت لفافة تبغ أنظر إلى نفسي وفي داخلها أحاول فهم أي شيء أو تحليل أي شيء، نظرت إلى نفسي في المرآة هل هذا أنا؟ ونظرت حولي.. الفراش كما هو، و«الابأجورة» بقبعتها الحمراء كما هي.. تذكرت آخر يوم نمت فيه حلمت أحلامًا كثيرة، وأن معظمها كان مزعجًا وعدوانيًا ومضحكاً وتافهًا أيضًا.. لكنني لم أستطع تذكر حلم واحد.

اكتشفت فجأة أن شخصًا آخر قد يكون هو من يحلم لي. وددت لو تذكرت ماذا كان يفعل ذلك الآخر لأتفرج عليه على مهل، وعيت أني في يوم عطلة أسبوعية، فظللت على استرخائي الشارد مع أحلام اليقظة.. راقبت وجه حفيدتي..

تتنفس بهدوء وانتظام، وبدت لي في إغماءة ثقيلة، فكرت أنه ربما كان ذلك الآخر يفرجها على صندوقه، يخرف ويغامر كما يحلو له، يعرض لها مشاهده البهلوانية المفككة وينشر بين يديها ألاعيبه.

فكرت أنها يمكن أن تكون ميتة الآن بهذا الجسد الهامد الملقى، غير أنني كنت أسمع صوت تنفسها واضحًا ورتيبًا.

ضحكت في سري من خواطري العابثة والتائهة، وخطر لي أنها خواطر ذلك الآخر الذي لم يفارقني بعد.

هربت منه عامدًا، أطلت النظر إلى النافذة.. شيشها مغلق، أحد مصراعيها الزجاجيين مغلق، والآخر مفتوح يشغل مكانه شق من الستارة الحريرية الوردية، بدا الضوء من الخارج مختلف الدرجة واللون بين نصفي النافذة..

تدفقت أصوات الخارج إلى الداخل، كانت ودائمًا تتدفق ولا أسمعها.. لم تفاجئني تلك الأصوات المتقطعة المعتادة لبائع البطيخ والصحف وخطوات المارة المسرعة والمتراخية وبكاء طفل بالشقة التي تحتي والدوي المستمر لموتور المياه بالعمارة والغسالة بالشقة التي فوقي.. خطر لي أنني أفلحت في الإفلات من أنشوطة ذلك الآخر الذي يقبع بداخلي.

في اللحظة ذاتها عاد يخرج لسانه ضاحكًا مستهزئًا يحجل كالطفل الكبير صائحًا: لقد عدت.. لقد عدت.

حدثته في دخيلتي قائلا: ليتني أرى وجهك، لكنك روح غائمة

ومبهمة، التي إلى جواري أكثر وضوحًا وتحددًا منك.. انظر.

نظرت إليها ولم أشعر أنه نظر معي، وبدا أنه اختفى من جديد كلية. وقعت عيناي على المرآة المقابلة للتسريحة التي في أقصى الفراش بدا وجهها مصقولاً ومعتمًا بعض الشيء ينعكس عليه الحائط أصم تمامًا لا يوحي بأي شيء.

سرت متكاسلا، شدتني المرآة إليها، بل شدني ذلك الآخر في المرآة..

فتوقفت ورحت أتفرسه بغيظ على مهل، وقفزت إلى رأسي الفكرة.

على معبد «دلفي» باليونان القديمة نقشت كاللافتة عبارة آمرة من ثلاث كلمات قالها سقراط لأحد تلاميذه: «اعرف نفسك بنفسك»..

قلت فلننفذ أمره.. رحت أتعرف على ذلك الآخر الواقف بمقابلي في المرآة، بدا لي جامدًا وباردًا ولا يثير في أي رغبة في معرفته، فما الذي يمكن أن أعرفه من هذه الكتلة.. الصورة المبهمة التي تحمل أنفًا وفمًا وعينين وشفتين ويدين وساقين، وكل هذا يملكه القرد في الغابة والغوريلا في الجبلاية؟

قلت لنفسي.. ذلك هو الآخر حيوان لسبب ما ارتدى بيجامة وغادر لتوه سريرًا ينام عليه، لا هناك حتمًا اختلاف فهو يحلم لي في أثناء نومي.

وما النوم إذًا؟ إنه كوضع الهاتف في الكهرباء ليشحن ويعمل. إن جسدي وعقلي كذلك، ولكن هناك عقل آخر يعمل لي في أثناء نوم عقلي الواعي.

من الذي يفكر لي في حلول لم تكُ لتأتي على بالي وأنا مستيقظ؟!

تذكرت أني شاهدت امرأة ذات يوم تقابل إحدى السيدات، ولكنها لا تعرفها، وقالت لها: إن ولدك سقط من النافذة ومات. وعندما ذهبت مع السيدة إلى منزلها وجدنا ابنها قد سقط فعلاً من النافذة ومات منذ خمس دقائق، أي في الوقت التي كانت تخبر فيه تلك السيدة الغريبة الأم بما حدث لولدها.

دائمًا ما كنت أسمع عن حكايات عن ليوناردو دافنشي، منها رواية أوقفتني كثيرًا عندها وهي أن دافنشي عندما كان يقف أمام لوحة بيضاء كان يجدها أو يراها هو فقط نصف مرسومة ويحرك يده ليكمل النصف الآخر فقط.. كيف له أن يرى ذلك؟

ويقول أيضًا إنه عندما كان يبدأ بالرسم يجد أن يديه لا يطاوعان عقله، ويتحركان وحدهما ليرسما شيئًا آخر.. شيئًا لا يعرف نهايته.. كيف ذلك؟ وكيف يحدث؟

إن الأمر يحدث معي أيضًا، فأنا أحلم بعض الأحلام وليست كلها

والتي ما إن أصحو من نومي أجدها تتحقق بعدها بلحظات، ما الذي بداخلي؟ وما الذي يحدث لي وأنا نائم؟ ولماذا لا أحلم إلا بما سيحدث؟ لا أعتقد أن حلمي بالشيء يجعله يتم، ولكن العكس فأنا أحلم بالمستقبل القريب دائمًا وأبدًا..

كم يومًا أريح رأسي على الكرسي لأغط في حالة تشبه الإغماء أكون حينها حلمت بحلم عجيب، وما إن أصحو مفزوعًا حتى أراه أو أسمع بخبر حدوثه.. تراودني الكثير والكثير من الأفكار العجيبة!

تعلمت فن التأمل لأنه الحل الوحيد الذي يجعلني أتحكم بما في داخلي، وما في نفسي يجعلني أنظر إلى نفسي بطريقة مختلفة، يجعلني أفكر في منبع تفكيري وكيف تخرج الأفكار من رأسي، ولماذا هذه الأفكار وليست أخرى؟

ولماذا أنظر إلى الأمور من تلك الوجهة ولا أنظر إليها من وجهة أخرى؟

ولماذا أرى ذلك مخطئًا ولا أرى ذلك مخطئًا مع أنه وقع منهما الأمر نفسه؟

جلست واتخذت وضع التأمل واسترخيت تمامًا وأطلقت لبصيرتي

العنان أنظر وأتفقد ما بداخلي، أذهب إلى كل مكان بعقلي، وأول سؤال سألته لنفسي: لماذا أحلم وبخاصة أنا مسترخٍ هادئ؟

راودتني تلك الإجابة أن الحلم أحيانًا انعكاس لما يُفكّر فيه الإنسان في يقظته، كالزواج مثلاً أو العمل، وهذا يندرج تحت قائمة «أضغاث الأحلام»، وأحيانا أخرى يكون الحلم فيه رسالة من الله سبحانه وتعالى، مثلاً تحذير لتارك الصلاة أو بُشرى لعبد صالح، وهذا يندرج تحت قائمة «الرؤيا الصالحة» أو الصادقة..

وتراودني إجابة أخرى.. في وجود رابط قوي يتجلى عبر لحظات خاطفة ليصل ما بين العمل الذهني الناشط في أثناء النوم وصور المعلومات التي تخزنها الذاكرة، وليجسّد حلولاً ونظريات ومعادلات يتفتق عنها الفكر اللاّواعي في لحظات نقائه.. فالفيلسوف الطبيب ابن سينا الذي عاش في القرن العاشر الميلادي، ذكر أنه عندما كان يواجه مشكلة ما، كان يشرب قليلاً من الماء البارد وينام، وفي أثناء نومه كان يحلم ويجد أجوبة للأسئلة الدائرة في رأسه.

أما عالم الكيمياء الفرنسي الشهير كيكولييه (**1829 – 1886**)، مكتشف تركيب بنية البنزين، فأكد أنّه بينما كان نائمًا على كرسيه أمام الموقد، بعد يوم من التفكير والعمل في مختبره الخاص، رأى مجموعة ذرّات

تتحرّك أمامه عبر حلقات متراصّة، وكلمح البصر، أفاق من نومه ليضع النتائج الحتمية لفرضيته العلمية.

والأمر نفسه ينطبق على عالم الكيمياء الروسي الشهير مانديلييف (1834 – 1907) الذي وجد في الحلم حلاً لمعضلة توزيع العناصر، وحسم الجدَل بإيجاد الدليل على كون العناصر تتوزع حسب وزن الذرّات، وليس حسب حجمها.

وتراودني إجابه ثالثة وهي أن الحلم هو سلسلة من التخيلات التي تحدث في أثناء النوم, وتختلف الأحلام في مدى تماسكها ومنطقيتها، ويوجد كثير من النظريات التي تفسر حدوث الأحلام، فيقول سيجموند فرويد إن الأحلام هي وسيلة تلجأ إليها النفس لإشباع رغباتها ودوافعها المكبوتة، وبخاصة التي يكون إشباعها صعبًا في الواقع، ففي الأحلام يرى الفرد دوافعه قد تحققت في صورة حدث أو موقف، والمثل الشعبي القائل: «الجعان يحلم بسوق العيش» خير تعبير على هذا، ولكن غالبًا ما تكون الرغبات في الحلم مموهة أو مخفية بحيث لا يعي الحالم نفسه معناها, ولذلك فإن كثيرًا من الأحلام يبدو خاليًا من المعنى والمنطق شبيهًا بتفكير المجانين، على عكس أحلام اليقظة التي تكون منطقية جدًا.

ودراسة الأحلام وُجدت لها آثار على الألواح الحجرية التي ترجع

إلى سومر، أقدم حضارة عرفتها البشرية، واعتقدت بعض الشعوب القديمة مثل الإغريق أن الأحلام عمومًا هبة من الآلهة لكشف معلومات للبشر وزرع رسالة معينة في عقل الشخص النائم.

واهتم العلماء العرب المسلمون بالأحلام وتفسيرها، وأصبح ذلك علمًا في حد ذاته عند بعض المفسرين مثل محمد بن سيرين، كما اهتم به مفكرون آخرون مثل محمد بن علي محيي الدين بن عربي (في كتابيه «الفصوص» و«الفتوحات المكية»)، وابن خلدون.

وقد سعى ابن عربي وابن خلدون إلى تفسير الأحلام وتحليلها وتقسيم أنواعها ومعرفة أسبابها ومصادرها، بينما لم يبدأ اهتمام علماء الغرب بدراسة الأحلام إلا حديثا.

وردت عن نبي الإسلام محمد بن عبد الله أحاديث كثيرة عن الأحلام ومنها: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب. وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءًا من النبوة. والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدّث المرء نفسه. فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدثْ بها الناس». فالنبي قسم الأحلام إلى ثلاثة أنواع:

1- الرؤيا.

2- الحلم.

3- أضغاث الأحلام.

فالرؤيا هي مشاهدة النائم أمرًا محبوبًا، وهي من الله تعالى، وقد يراد بها تبشير بخير، أو تحذير من شر، ويسن حمد الله تعالى عليها.

والحلم هو ما يراه النائم من مكروه، وهو من الشيطان، ويسن أن يتعوذ بالله منه ويبصق عن يساره ثلاثًا، وأن لا يحدث به أحدًا.

وأضغاث الأحلام وهي عبارة عن رغبات ومخاوف مكبوتة في العقل الباطن.

فهو كذلك، وما إن توصلت لإجابة شافية تشفي غليلي من ذلك الذي يراودني وما لبثت إلا أن ظهر في عقلي سؤال آخر؛ هل حقًّا أستطيع أن أتحكم في أحلامي؟ كيف ذلك؟

أتحكم في حلمي وأنا نائم؟ كيف لي أن أدرك أني أحلم؟

لو أدركت ذلك لكان لي كامل السيطرة على حلمي هل هي موهبة؟

وهنا تسعفني ثقافتي.. بقراءتي في أحد الكتب القديمة عن عالِم يسمى لابيرج، حيث كرس ستيفن لابيرج أبحاثه في مجال الأحلام الجلية، وأثبت خطأ العلماء في كون الحلم الجلي غير قابل للتحقيق.

من خلال أبحاث لابيرج قام بإجراء تجربة بسيطة على الشخص محل التجربة، اتفق مع هذا الشخص أنه إذا رأى نورًا ساطعًا يأتي من بعيد في أثناء نومه، فعليه أن يحرك عينيه أولاً ناحية اليسار ثم ناحية اليمين.

ما إن نام هذا الشخص حتى وجه لابيرج ضوءًا ساطعًا على عيني الشخص النائم، وقد استجاب النائم بوضوح إلى الضوء الساطع الموجه من قبل لابيرج فحرك عينه إلى اليسار ثم اليمين.. وكان نجاح هذه التجربة هو الرد الوافي لإمكانية الحلم الجلي؛ اذ تمكن الشخص النائم من التحكم في انفعال معين في أثناء نومه.

لابيرج في رحلته للبحث عن أولئك الأشخاص القادرين على «الحلم الجلي»، إذ تبين له من خلال تجاربه أنه ليس للجميع المقدرة على خوض تجربة «الحلم الجلي»، حيث نستطيع القول إن «الحلم الجلي» هو موهبة لا يبرع فيها جميع الحالمين، ولكنها قد تصقل بالتعلم من أجل هذا الغرض.

أنشأ لابيرج العديد من ورش العمل التي تشرح الكيفية التي تمكن الشخص من رؤية «الحلم الجلي» كتجربة مبدئية يحصل الطلبة في ورشة العمل على قناع وجهي يحتوي على أضواء ساطعة عند موضع العينين، من خلال هذا القناع يحاول لابيرج أن يجري تجربته التي أثبت بها إمكانية

«الحلم الجلي»، ولذلك تطبق هذه التجربة للطلبة لمعرفة إذا كانت لديهم القدرة على «الحلم الجلي» أم لا.

إذا استطاع الشخص الحالم أن يميز الأضواء الساطعة في أثناء نومه ويتفاعل معها من خلال حلمه فهو بذلك يصبح شخصًا ذا قدرة على «الحلم الجلي».

وبصقل هذه المقدرة يصبح الشخص «حالمًا جليًا» بشكل لا شَكَّ فيه يمكنه من التحكم الكامل في أحلامه.. وإذا ما نام ورأى حلمًا فإنه يعرف تمامًا أنه يحلم ويستطيع أن يفعل ما يشاء في أثناء الحلم كأنه متيقظ تمامًا.

يرى لابيرج أن ميزة تجربة «الحلم الجلي» تكمن في معالجة بعض مشكلات النوم مثل الكوابيس المتكررة.

فإذا أتقن الحالم تجربة «الحلم الجلي» فإنه يستطيع أن تكون له كامل السيطرة على كوابيسه ومعرفة ماهيتها، ومن ثم معالجتها وعدم تكرارها مرة أخرى.

إذًا فأحلامي وسيلة للتعلم بينما أنا نائم.. أحل مشاكلي بينما أنا نائم..

وها أنا أفيق من غيبوبتي مرة أخرى بعد حلم أغرب من الذي قبله

مرة أخرى. كيف أرى نفسي بهذه الكيفية؟ وكيف أتذكر تفاصيل الحلم كاملة لا أعلم شيء حقًا؟ لا أعلم؟ أنا مشوش تمامًا لا أدري ما الذي يحدث لي ما الذي حدث في شقة هذا المجنون ما الذي يحدث؟

في حلمي الأول لم أتذكر شيئًا قط مما حدث. وفي حلمي الثاني أراني في الماضي أشعر وأحس وتتداخل أحلامي بعضها ببعض داخل حلم أكبر واحد يجمعها جميعًا، ومن ثم تتلاشى جميع الظواهر والأشخاص تمامًا، وأنا أتذكره جيدًا جدًّا على عكس الذي قبله.

وحلمي الثالث ذلك الحلم المشوش الذي أبحث فيه عن نفسي وعن قريني وعن هويتي وتتداخل فيه الأحلام والإسقاطات والأشخاص والمواقف والأماكن.

– 9 –

الشقة مرة أخرى.. وقصة الفتاة المسكينة

لا.. لا لـن أدع للنـوم طريقًـا إلـي، لـن أنـام، سـوف أذهـب إلى هـذا المجنون، ومهما كلفني الأمر سوف أذهب.

ركبت سيارتي وذهبت بأقصى سرعة إلى الشقة تلك وأنا آمـل أن أرى تفسيرًا وحقيقة.

وها قد وصلت إلى المظلات ووصلت إلى العمارة وصعدت درجات الـسلم لاهثًا راكضًا والدموع والأمل يتلاحقان ويتسارعان في البحـث عـن الحقيقـة في سراديب الشقة، ووصلت إلى الشقة وتوقفت لبرهة لألـتقط أنفاسـي المـشتتة في غمرات أفكار قاتلة تمتص روحي من جسدي تجتز أوردتي وضلوعي.

وقفت أمام الشقة منتظرًا أن تنفتح المغارة أمامي، وكنت أرسـم العـالِم المجنون هـذا ممـشوقًا بهامتــه، لــه صـدر يـصد الـريح إذ تعـوي، مهابًـا في عباءته، له طباع محددة، ابيضَّ شعره قبل الأوان.. كنت أصوره كطفل صغير ينتظر شخصًا يريده ولا يعرفه.. يريده بشدة.

وتحسست باب المغارة، بابًا مليئًا بالخدوش، ولم يكن عليه جـرس، ولا مقرعة، وارتبط ذلك في ذهني بقصة عجيبة للغاية، حيث كنت عائـدًا إلى

منزلي والساعة تقارب الثالثة صباحًا واقتادتني خطواتي إلى شارع مكفهر بليد لا أرى فيه حرفيًا إلا القناديل المضيئة على جانبي الشارع لترسم خيالات على أرصفته الملونة باللونين الأبيض والأسود، وأرى أمامي الشارع فارغًا من كل شيء.. حتى القوم جميعهم نيام.. وكنت متلهفًا شوقًا لأجد أي شرطي في الشارع لأشعر ببعض الأمان. وتتداخل الشوارع والحانات تتراقص أمام عيني والعربدة يسمع صوتها من بعد ميل من تلك الحانات وأرى أمام ناظريّ طفلة صغيرة تركض في الشارع وتأتي سيارة مسرعة لتدهسها.. وتطير بسرعة البرق من أمام ناظري.

لقد كان مشهدًا جهنميًا.. لقد بدا لي من كان في السيارة وحشًا مقيتًا لا يحمل أي شعور بداخل جوفه ولا قلبًا، وإنما عراء مطلق للتجرد من الإنسانية، وأرى الفتاة ملقاة على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة وأنا أتفصد عرقًا، وددت أن أركض نحو الفتاة لمساعدتها، وتبادر إلى ذهني حارس عقار المهندس حينما دهسته السيارة هو الآخر ولم تبقِ على حياته بشيء، وإنما اخترقت أوردته وشرايينه لتمزق نفسه وروحه وجسده في تلك الحادثة المقيتة.

ولكن.. وبسرعة جاء رجل ضخم الجثة عريض المنكبين أشعث الشعر إن نظرت إليه في تركيبة جسده تراه يشبه إنسان الغابة أو الإنسان البدائي

في طول قامته وعرض منكبيه وهيئة جسده.. وأخذ الطفلة وسارع بالجري على الأرض، وأسمع وقع خطواته وكأنها تصطدم بأذني رغمًا عني، وكثيرًا ما يراودني هذا المشهد في نومي..

قطعت سيل خيالاتي رغمًا عني ونظرت إلى الباب ودفعته فانفتح بسهولة كما الأول، ودخلت الشقة وتوجهت إلى غرفة المكتب.. أنا أعرف الشقة تمام المعرفة، وجئت إليها قبل ذلك.. نعم، فلم أكن أحلم، وإن كنت كذلك فلن أتذكر كل محتويات الشقة، ولكني أتذكر كل محتوياتها التي رأيتها من قبل، وها هو المكتب الأسود الذي يحمل بين طياته فراشًا، وها هي الصورة تطالعني مرة أخرى، ولكني لم أنظر إليها قط حتى لا يحدث لي كما الأول، وإنما نزعت غلافها الخلفي لأرى أكثر مشاهد حياتي رعبًا.. حيث كتب على ظهر الصورة «ألستر كراولي»!

إن الصورة بها تعويذة غاية في القوة من تعويذات السحر السفلي!

نعم.. هي كذلك ترغم من يجلس أمامها على أن لا ينظر إلا إليها محدقًا فقط وتسرق منه عالمه الواقعي والدنيوي وتمزق الوقت في ذهنه ويتلاشى الواقع ويبدأ الخيال في الظهور وعزف السيمفونيات وطيران العقل والاندماج الشديد بين الظاهر والباطن في وقت واحد يجعل الأمر مستحيلاً أن يفيق ذلك الشخص من غيبوبته إلا بعدما تهشم رأسه بأي شيء أمامك لتمزق

حبل الوصل بين عقله الواعي واللاواعي، ذلك الرابط شديد المتانة بفعل التعويذة.

وأخذت الصورة وأحرقتها وتقفز لذهني حقيقة حلمي الأول عن تلك العابسة وأرى عينيها يدمعان وأنا أحرقها وتنظر إلى بعين كأنها تتوسل إلي لأنقذها، ولكن فات الأوان فقد احترقت الصورة كاملة وما تبقى رماد تذروه الرياح.

وبحثت عن المعمل في الشقة وذهبت إلى الردهة المظلمة.. تلك حمراء اللون باهتة المعالم.. أسير أترنح أتخبطت يمينًا ويسارًا.. وجدت المرحاض كبيرًا واسعًا لم أعهد في حجمه أي مرحاض آخر، وأظن أنه طراز إيطالي، وهناك مرآة كبيرة الحجم لها نفس حجم جسدي تقريبًا. صورتي تطالعني ولكنها تبدو بدينة عني قليلاً. خرجت وأكملت سيري إلى الردهة حتى وصلت إلى مرادي ومستودعي وسردابي.. إلى المعمل.

– 10 –

معمل مهيب لعالم عجيب.. ونظريات عبقرية

فتحت الباب ودخلت.. ولأول مرة أجد مفتاحًا للضوء في المعمل.. وضغطت على الزر، وما إن أُضيئت الغرفة حتى وجدت نفسي في حديقة حيوان خالية من الحيوانات المفترسة.. قرود من الشامبنزي والقرد أورنج أوتنجا.. والكوالا والقطط والباندا والأفاعي والعناكب والعقارب المحفوظة في صناديق من الزجاج المقوى الذي من المستحيل إحداث أي شرخ أو كسر به.. ولكنها فصائل نادرة فأنا عالم بيولوجي بحت، وأعلم جميع الكائنات البيولوجية على وجه الأرض وأعرف أنواعها.

ثم ما الذي يفعله بها هنا؟

ولكني لاحظت أمرًا عجيبًا.. أكلات العشب واللحوم لها أوزان خيالية؛ الفئران والقطط والكوالا والباندا والقرود، وبخاصة الأورنج أوتنجا، له صورة عدائية كبيرة جدًّا على غير طبيعتها.. يصطدم بقوة بقضبان القفص الذي يحمله.. يصطدم وكأنه يرغب في نيل حريته!

وأجد أمامي الكثير من أزهار «عصفور الجنة»، والكثير من شجيرات الصنوبر وحبة البركة تتراقص هي الأخرى أمام عيني وتستفز العالم الذي

بداخلي لمعرفة ماذا يفعل بكل هذا، وما سبب كل تلك التجارب التي يقوم بها على الحيوانات، وبخاصة القرد أورنج أوتنجا، لأنه قد يكون أكثر الحيوانات تشابهًا مع الإنسان في الكثير من الصفات الوراثية والمكتسبة وغيرها.

وأجد أمر مريرًا..

مجموعة من أدمغة بشرية رمادية اللون في محلول الفورمالين محفوظة أنسجتها بفعل التأثير الفورماليني عليها، مقطعة طولاً وعرضًا من مركزها!

أخذت واحدًا أبحث فيما ينقصه فقد يكون استئصل منه شيء.. وهنا أجد ضالتي.. وحقًا كان ما أقول صحيحًا.. لقد نزع منطقة الميهاد من مركز المخ. وأخذت آخر ونفس الأمر.. وآخر وآخر.. وجميعها منزوعة منطقة الميهاد، ولكن لماذا الميهاد بعينه؟ هل لأنه المتحكم الأساسي في ردود فعل الإنسان بمساعدة الأدرينالين، فهو المتحكم الأساسي في عملية النوم؟ نعم هو كذلك.

وفي أثناء فحصي وفكري وجدت ميكروسكوبًا شديد الحداثة في نوعه، له قوة تكبير فائقة، بداخله رقاقة عليها نسيج أزرق اللون من أثر الصبغة التي تم صبغه بها.. وها أنا أرى مجهرًا غير ضوئي، حيث يمكننا من فحص

الخلايا الحية في أثناء نشاطها، ويستخدم دون استخدام الصبغات لصبغ النسيج.

ومددت عيني ونظرت في فتحة عين المجهر لأرى نسيجًا من خلايا الميهاد، وفي المجهر الآخر الحديث أجد نسيجًا لمنطقة تحت الميهاد.. وبسرعة خاطفة أخذت الشريحتين ووضعتهما في جيبي وأنا أتلفت ناظرًا حولي لأجد نوتة على سطح مكتب صغير متلاصق ومتشابكة أخشابه بصعوبة بالغة مع بعضها..

نوتة زرقاء اللون.. قلبت صفحاتها لأجد نظرية عجيبة الشكل والمعنى كتُب في بدايتها بخط عريض: النوم من خلال التجارب.. النوم ليس فقدانًا للوعي أو «غيبوبة»، وإنما حالة خاصة يمر بها الإنسان، وتتم خلالها أنشطة معينة. عندما يكون الإنسان مستيقظًا فإن المخ يكون لديه نشاط كهربائي معين، ومع حلول النوم يبدأ هذا النشاط بالتغير. ودراسة النوم تساعدنا على تحديد ذلك تحديدًا دقيقًا. فالنائم يمر خلال نومه بعدة مراحل من النوم لكل منها دورها.. فهناك المرحلة الأولى والثانية، ويكون النوم خلالهما خفيفًا، ويبدآن مع بداية النوم، بعد ذلك تبدأ المرحلة الثالثة والرابعة، أو ما يعرف بالنوم العميق، وهاتان المرحلتان مهمتان لاستعادة الجسم نشاطه، ونقص هاتين المرحلتين من النوم ينتج عنه النوم الخفيف غير

المريح والتعب والإجهاد خلال النهار، وبعد نحو تسعين دقيقة تبدأ مرحلة الأحلام أو ما يعرف بمرحلة حركة العينين السريعة، وتحدث الأحلام خلال هذه المرحلة، وهذه المرحلة مهمة لاستعادة الذهن نشاطه.

والمرور بجميع مراحل النوم يعرف بدورة نوم كاملة. وخلال نوم الإنسان الطبيعي (6 – 8 ساعات) يمر الإنسان بنحو 4 – 6 دورات نوم كاملة.

بمراقبة تصرفات النائم.. وأحد أسباب ذلك هو أن اختبار عتبة الاستجابة سوف يعطل حالة النوم التي يتم دراستها وينقل الفرد إلى حالة الاستيقاظ.

سبب آخر هو أن مراقبة السلوك وتسجيل الملاحظات بصورة مستمرة طوال فترة النوم هي عملية مرهقة للغاية وتستغرق وقتًا طويلاً.

يجب أن يعكس المعايير الأربعة الرئيسية التي تميز النوم وهي:

الحركة الضيئلة: الحركات الضخمة مثل المشي والكلام والكتابة عادة تمنع حكم النوم، ولا تحدث خلاله بشكل غير مرضي.

نمطية الموقف: مثلا في العادة، ينبطح الإنسان على الأرض عندما ينام (مع استثناءات نادرة)، وعليه فمن الممكن القول إن الإنسان وهو يقف مقلوبًا

على يديه لا يمكن أن يكون نائمًا.

ردود منخفضة على المؤثرات: الإنسان لا يستجيب للأصوات المنخفضة الحدة وهو نائم.

الانعكاسية: النائم يستطيع أن يستيقظ من النوم، مما يميز النوم عن الغيبوبة أو الوفاة.

تشكل هذه المعايير السلوكية تعريف النوم الذي يتطابق مع مفهوم الفرد العادي للنوم، إلاّ أن العلم يعرف النوم ببعض المقاييس الفسيولوجية والمرتبطة بصورة وثيقة بعملية النوم هذه المقاييس الفسيولوجية تستمد قيمتها من ارتباطاتها السلوكية بالنوم، وهي تقدم معلومات عن أنواع أو مراحل النوم التي لا يمكن ملاحظتها ضمن المظاهر السلوكية للنائم بوضوح.

ووجدت في الصفحة المقابلة نظرية النوم كاملة بعد تلك الكلمات التي جعلتني أقتنع من دون شك أني أمام عالم متمكن ومتعمق في العلوم لا الهندسة، يعلم تمام العلم ما يكتب وما توصل إليه حتى الآن لا يحمل أي شبهة للخطأ.

وكانت النظرية مترابطة بصورة شديدة جدًا بحيث لم أجد ما يعيبها كعالم، حيث قال إن النوم يحدث باستمرار للإنسان وأي كائن حي على

اختلاف ظاهره، ولكن المتحكم الأساسي في النوم هو العصب البصري المستقبل لكمية الضوء، بحيث يصل لمنطقة الميهاد لحظيًا مدى الضوء الساقط على عين الإنسان مما يحدث الرؤية، بحيث يبعث برسائل عصبية لمنطقة الميهاد بالمخ، ومن ثم يبعث الميهاد رسالة عصبية للغدة الصنوبرية بكمية الضوء المستقبلة، بحيث تكون إشارة بإفراز المينتولاين.. وترسل الغدة الصنوبرية رسالة عكسية للميهاد.

وعند إجهاد العين وعصبها يبدأ العصب البصري باستقبال كميات أقل من الضوء تدريجيًّا وبعثها برسائل عصبية للميهاد، وإذا وصلت كمية الضوء المحسوس إلى الـ3٪ من الإجمالي والطبيعي بعد الإجهاد، يقوم الميهاد بإفراز هرمون النوم ويبعث برسالة عصبية مركزية لغدته الصنوبرية بأمر إفراز المينتولاين.

بعد أن تصل كمية الضوء المحسوس إلى الصفر وتستقر العين ويبدأ الإنسان بالنوم، وعلى أساس ما ذكرت من مراحل النوم، يبدأ الإنسان بالحلم بعد ساعة ونصف الساعة من النوم.

واستوقفتني كلمة طويلا أتفحصها لأعلم بماذا يخفي وراءها!!

«هنا يبدأ التمازج والاندماج بين العقل الواعي واللاواعي والماضي والمستقبل، وذلك بعد الحقن بالإكسير يزداد التمازج والاندماج بقوة تعادل

أربعة أضعاف، وهذا ما حدث مع...».

مع من يا الله؟ لماذا لم تكتبها؟

ماذا من من؟

وتقفز لذهني صورة الفتاة التي قابلتها عند الصائغ التي علمت وفاة زوجتي ومكانها كئيبة الوجه.. نعم يبدو أنه يقصدها هي.. يقصد رهف ابنة الثلاثة وعشرين عامًا.. نعم، ويقصدني أنا، نعم.. ولكن كيف يقصدني أنا وأنا لم أره قط؟! وكيف حلمت كل تلك الأحلام عن الماضي الغائب الذي لم أحضره كاملاً والمستقبل القريب الذي لم يأتِ بعد؟ هل أعطاني الإكسير وأنا لا أدري؟! وكيف أعطى لرهف أيضًا الإكسير وهي لا تدري، أم كان هذا بمحض إرادتها.

بعض الكتب الموضوعة على المكتب منها كتاب «تناسخ الأرواح» و«الخلود الأبدي» و«إكسير الحياة» وبعض آخر في السيكولوجي الحيواني.

وأراني واقفًا أمام معمل كيميائي غاية في الحداثة والتطور.

أنا لست أمام عالم بيولوجي فقط، وإنما عالم كيميائي بحت لما أراه من كل تلك المخابير والأنابيب والمحاليل، وهناك ميكرسكوب ذو قوة تكبير هائلة تتعدى العشرة آلاف مرة!

ماذا يفعل بكل هذا المختبر وكل هذه التكنولوجيا التي من المستحيل أن أجدها اليوم في بلدي؟ ومتى جاء بكل تلك المعدات؟ لقد تُوفيت زوجته رنا منذ خمس سنوات.. هل هو سبب في وفاتها؟ هل أجد مخها هنا ضمن مجموعة الأدمغة البشرية التي أراها أمام عيني؟

كل شيء يتراقص أمام عيني، وتلك النوتة التي كُتب فيها السر الإكسير.. ما تركيبه ولماذا يضع عقارب وأفاعي في معمله وعناكب من الحجم العملاق وأزهارًا وبراعم نباتات نامية وكبيرة في الحجم؟

من الصعب، بل من المستحيل، أن أضع نفسي مكانه، فدائمًا ما أفكر بتفكير الشخص الآخر حتى يكون علمي بالمشكلة أو المعضلة وطريقة حلها يرضي جميع الأطراف، ولكني هنا عاجز حتى عن التحرك بضع خطوات أمام سر غائب في فوهة بركان ثائر، وأراني لا أستطيع حتى الاقتراب منه بضعة مترات.

هل يكمن السر في رهف.. تلك الفتاة الشاحبة المتباطئة؟ ولكن أين أجدها؟ وأين تقطن؟ وكيف لي أن أجدها في منطقة تعج بالسكان؟

زادت تأملاتي وفلسفتي، المستوى العقلي لمخي حتى عجز عن التفكير ولو ثانية ولو للحظة، لقد أعلن العطل ووقف يشاهد معي مشدوهًا بما يرى، لا يستطيع تفسير بضع حقائق وكلمات.

نظرت في كل أرجاء المختبر العظيم الذي لا أمتلك مثله وأنا عالم في البيولوجي، كدراسة وتعمق وأبحاث، وهو ليس كذلك وإنما هاوٍ في ظاهره، ولكني مقارنة بما قرأت أجدني أنا الهاوي.

وطالعني دفتر أخضر اللون مكتوب عليه بعض من تأملاتي للعالم إبراهيم الطناني، وبسرعة أخذته هو أيضًا وخبأته بين أحشائي، وفتحت باب المختبر وتحسست طريقي مرة أخرى للعودة من حيث أتيت، وأراني أهبط درجات السلم وأحس أنني أهبط إلى قبري أو إلى العالم البدائي الذي أعيش فيه وأتعايش معه.

لقد كنت أظن نفسي عالمًا.. والآن أنا جاهل تمام الجهل.. حتى الجهل ينظر إلي بعين الاحتقار بعدما نسبت نفسي له حينما قُلت إني جاهل دائمًا أقول لنفسي: «ما أصعب التثقيف في شكل الإناء».

أمنّي نفسي بها دون فهمها أو الوعي بمعناها أو حتى إدراكها...

كلما قرأت كتابًا جديدًا أشعر أن معرفتي تزيد مع جهلي، فأنا أجهل ما كان يقوله الكاتب، وعندما قرأت كلماته ازدادت دائرة معرفتي ولكن زاد جهلي أيضًا لأن هناك المزيد دائمًا.

لقد اكتشفت أن كل شيء في هذه الدنيا ما هو إلا محض كذبة.. أيمكن

أن يخالف الظاهر الباطن إلى هذا الحد؟! أيمكن أن تخدع الصور، وتكذب العين واليد واللسان؟ أيمكن أن تصبح الحياة كلها تمويهًا؟ حتى ما نراه في الواقع ليس دائمًا هو الحقيقة..

حتى ما نراه رأي العين ونلمسه لمس اليد..

ننظر إلى السماء على أنها فوق، والأرض على أنها تحت، مع أنه لا يوجد فوق ولا تحت.. والسماء تحيط بالأرض من كل جوانبها. والهرم بالنسبة لنا شيء لا يمكن اختراقه، مع أنه بالنسبة للأشعة الكونية شفاف كلوح الزجاج، ترى من خلاله وتنفذ من خلاله. وصقيع القطبين الذي نظن أنه غاية في البرودة هو بالنسبة لبرودة أعماق الفضاء جحيم ملتهب.

جريمة القتل التي أحس الجميع بأنها ذروة الكراهية يكتشف الجميع أنها ذروة الحب.. وما قد يبدو للزوج أنه خيانة من زوجته لفرط إحساسها بجمالها قد يكون الدافع الحقيقي له.. هو إحساس الزوجة بقبحها وشعورها بالنقص، تحاول الخلاص منه باستدراج إعجاب الرجال، والانتقال من خيانة إلى أخرى.

حقًا ما أصعب الوصول إلى الحقيقة..

وها أنا أهبط الدرجات الأخيرة للسلم وأجد حارس العقار أمامي يطالعني بامتعاض وعيناه تسألان آلاف الأسئلة.. ثم راودني أنه سيسألني ماذا كنت تفعل في العمارة ولكن صعقني بسؤاله!

تجمدت أطرافي وتعرقت يداي وأجهشت بالبكاء دون أي مبرر بعد هذا السؤال..

هل حقاً هو سؤال؟ لقد قال لي: هل رأيت المهندس إبراهيم الطناني؟ لقد كان هنا منذ لحظات..

كيف؟

- 11 -

دهشة مميتة.. والحقائق تتوالى

لم أره ولم أشعر بوجوده وهل رآني هو حقًا أم لم يدخل الشقة من الأساس؟ نظرت إلى العمارة وكانت الصدمة الكاسرة الأخرى لي والدهشة المفزعة لسهولة وجود ما أبحث عنه أمام عيني..

إنها رهف..

تقطن في نفس العقار..

يا الله.. كيف لم أرَ شقتها؟ لقد كانت اللافتة معلقة طوال الوقت أمام ناظري وأنا أذهب وآتٍ إلى العمارة ولم أرها.. هل كان مدى انشغالي بذلك المجنون يؤثر على بصري كما أثر على عقلي؟

اللافتة كبيرة زيادة ليراها الضرير، ولكني لم أرها!! لافتة زرقاء اللون كتب عليها بالخط العريض «مكتب المحامية رهف.. دكتوراه في العلوم الجنائية ومستشارة في النقض الدولي»..

وهممت أصعد إلى الشقة ولكن لم تكن مضيئة أو حتى ينبعث منها أي ضوضاء أو شعاع نور حقًا! يجب أن أذهب إلى منزلي الآن.. الساعة تدق الثانية عشرة بعد منتصف الليل..

وصلت إلى شقتي وجسدي النحيل يأبى النوم وعقلي يشتعل تفكيرًا ولم أجد للنوم سبيلاً..

كان لا بُدَّ من تفسير.. لم يكن في إمكاني أن أنام دون أن أعثر على تفسير..

وأشعلت سيجارة وعدت أفكر في هدوء وأنا أجهد نفسي في البحث بحكمة وتعقل عن تفسير، وأتوسل بكل ما أعرف من محصول علمي في جميع المجالات وأتذكر أحداث هذا اليوم العصيب كلها.. كانت القضية كلها بالنسبة لي بلا حل.. ذلك العالِم المجنون إبراهيم الطناني.

وقلت لنفسي القراءة في بعض الجرائد القديمة سيبعث بالنوم عاجلاً أم آجلاً.. ولا أعرف حقيقة وجودها عندي حتى الآن.

وأخذت منها الكثير استعرضه، وشغلت مشغل الموسيقى على محطتي المفضلة وهي الأوبرا.. وبدأت في تصفح المقالات وغيرها، وبدأ النوم يقفز إلي وأنا أسحبه لي سحبًا.. وبدأت عيناي بالارتخاء وبدأت في الدخول في عالم النوم والسُبات العميق.. وبدأ عقلي في أخذ قسط من الراحة، ولكن وقعت من يدي إحدى المجلات القديمة، والتي أفزعتني حتى شعرت أن الحياة عادت لها.. وأخذتها وتلعثم لساني وأنا أقرأ ما كُتب على غلافها، ويداي ترتجفان وعيناي لا تقويان على تصديق ما تراه وعقلي يرفض أي

تفسير لما يشاهده ويقرأه: «طبيب حديث التخرج يكشف عن عملية إجهاض للحبالى من أجل أخذ الخلايا الجذعية من الأجنة».

وكتب بخط صغير تحت العنوان: «طبيب حديث التخرج يسمى أحمد متولي يبلغ عن سرقة أجنة سيدات حوامل من أجل الانتفاع بالخلايا الجذعية الجنينية التي يستخلصها من الأجنة، ولم يعرف للسارق طريق إلى الآن مع نفي التهمة عن كل من يعملون في المشفى لأنه مشفى تعليمي وللأطباء حديثي التخرج ولا يعتقد أن أحدهم له من الخبرة لفعل تلك الجريمة الشنيعة.

وها هي صور الضحايا واللاتي يقصصن قصصهن لما حدث لهن بأن التشخيص الأولي يقول إنها تمتلك مرضًا خبيثًا في رحمها ويجب استئصالها.. فبعضهن أجرى العملية على وجه السرعة لأنهن أنجبن أكثر من مرة ولا مشكلة في ذلك..

لكن برقت في عيني قصة تلك المرأة الباكية الفقيرة المتكبدة عناء وهول ما أحاط بها، والتي أصيبت بمرض نفسي بعد اكتشافها الحقيقة، وأنها لم تنجب منذ تزوجت منذ خمس سنوات، وأنها ذهبت لعمل الفحوصات في ذلك المشفى، وتم أخذ عينات كثيرة وخرجت النتائج معلنة إصابتها بهذا الورم الخبيث ويجب استئصال الرحم. وقد جمعت كل ما تملك من مال

وقامت ببيع كل ذهبها لتعيش وقامت بإجراء العملية.

ثم وبعد عدة شهور تكتشف وهي تجري بعض الفحوصات عند دكتور خاص أن الرحم ما زالت موجودة.

وعندما عرضت عليه فحوصات المشفى ونتائج العملية أكد لها أنها كانت حاملاً وأن ما انتزع منها جنينها وليس رحمها، مما أصابها بصدمة عصبية عنيفة تعاني من آثارها حتى الآن..

برقت في ذهني تلك الكلمات مما جعل النوم يطير من بين جفوني وقفزت إلى ذهني بعد استدعاء شاق من سراديب ذاكرتي معلومات عن الخلايا الجذعية الجنينية التي قمت بعمل بحث عنها كامل، وأسرعت أبحث في مكتبي عن هذا البحث لعلي أجد غايتي من وراء عملية السرقة المشبوهة التي اعتقدت في بادئ الأمر أن عملية السرقة قام بها طبيب مشهور يعلم علم اليقين كل شيء عن الأجنة وغيرها، وقفز إلى ذهني أن يكون ذلك المهندس المجنون هو السارق والقاتل والمغتصب بعدما وجدت شقة رهف في نفس العمارة التي يقطنها، وأنه على صلة وثيقة بها بالتأكيد، وأنه على صلة أيضًا بذلك الطبيب أحمد متولي حديث التخرج.

قد يكون الأمر ضربًا من الخزعبلات، وأن قلة النوم والإجهاد يؤثران على عقلي، ولكن لماذا لا يستأصل الخلايا الجذعية من أي إنسان وليس

بالأحرى من الأجنة؟ ولماذا الأجنة فقط؟!

أنا أمام سارق عالم شديد الإلمام بالمعلومات عن تلك الخلايا الجذعية وعن أي نوع يحتاج في إحكام تخطيط خطته الشيطانية.

وبدأ عقلي يميل إلى ترجيح كفة العالم المجنون إبراهيم الطناني، وأنه هو المجرم الأساسي، وأنه السارق لتلك الأجنة.

وأخيرًا وجدت مرادي، ووجدت البحث، وها أنا أبدأ في تقليب صفحاته الواحدة تلو الأخرى حتى وجدت الجزء الخاص بالخلايا الجذعية الجنينية وقد كُتب فيه الآتي:

أولاً: الخلايا الجذعية الجنينية: يتم الحصول على الخلايا الجذعية الجنينية من الجزء الداخلي للبلاستوسايت، التي هي إحدى مراحل انقسامات البويضة المخصبة بالحيوان المنوي؛ حيث تكون البويضة عندما تلقح بالحيوان المنوي خلية واحدة قادرة على تكوين إنسان كامل بمختلف أعضائه، توصف بأنها خلية كاملة الفاعلية تنقسم فيما بعد هذه الخلية عدة انقسامات لتعطي مرحلة تعرف بالبلاستوسايت. وتتكون البلاستولة من طبقة خارجية من الخلايا المسئولة عن تكوين المشيمة والأنسجة الداعمة الأخرى التي يحتاج إليها الجنين في أثناء عملية التكوين في الرحم، بينما الخلايا الداخلية يخلق الله منها أنسجة جسم الكائن الحي المختلفة، ولهذا لا

تستطيع تكوين جنين كامل لأنها غير قادرة على تكـوين الـمشيمة والأنـسجة الداعمة الأخرى التي يحتاج إليها الجنين خلال عملية التكوين، على الـرغم من قدرة هذه الخلايا على تكوين أي نـوع آخـر مـن الخلايـا الموجـودة داخـل الجسم.

تخضع بعد ذلك الخلايا الجذعية للمزيد من التخصص لتكوين خلايا جذعية مسئولة عن تكوين خلايا ذات وظائف محددة.

وها أنا أجد مرادي في تلك الكلمـة الـتي حملقـت فيهـا كـثيرًا لأجـد تفسيرًا علميًّا لما يحدث في ذلك المشفى وتلك القضية (على الرغم من قدرة تلـك الخلايا على تكوين أي نوع آخر من الخلايا الموجودة داخل الجسم) ماذا يعني هذا؟

هذا يعني أن سارق تلك الأجنة يستخدم خلاياها الجذعية في تكـوين شيء أو تخليق شيء ما.

وتسعفني ذاكرتي العلمية في فكرة ميعاد استئصال الجنين، وهو يبلغ الثلاثة أشهر وليس أكثر! حتى يكون من اليسير استئصال الخلايا الجذعيـة والحصول عليها.

وفي هذا الوقت يكون الجنين على أشد نموه وانقسام خلاياه مما يجعل

الخلايا الجذعية الجنينية نشطة بصورة مهيبة ورائعة في تمازج بديع مع الخلايا المتحورة من الجنين في أثناء الانقسام.

وقرأت السطر التالي وهو ما جعل تفسيري منطقيًّا جدًّا، الذي كنت أحسب أنه ضرب من الخيال وخزعبلات فقيرة إلى التفسير والبحث وراء الحقيقة في أن المجرم الحقيقي هو المهندس إبراهيم الطناني.

كُتب في السطر التالي في البحث:

هناك بعض الفروق المهمة بين الخلايا الجذعية الجنينية والبالغة؛ وهو أن الخلايا الجذعية الجنينية تنتج إنزيم «تيلومريز» الذي يساعدها على الانقسام باستمرار وبشكل نهائي.

بينما الخلايا الجذعية البالغة لا تنتج هذا الإنزيم إلا بكميات قليلة أو على فترات متباعدة مما يجعلها محدودة العمر.

كما أن الخلايا الجذعية الجنينية قادرة على التحول إلى جميع أنواع الأنسجة الموجودة في جسم الإنسان، بينما الخلايا الجذعية البالغة لا تتمتع بهذه القدرة الكبيرة على التحول. وهذا يجعل الخلايا الجذعية الجنينية أفضل من الخلايا الجذعية البالغة.

وها هي الحقيقة تأتي لتنير بصيرتي وعقلي وأني كنت على حق

حينما اتهمت ذلك العالم بسرقة الأجنة المجهضة، ولكن يجب أن أجد دليلاً على كلامي.

– 12 –

تركيب الإكسير بين يدي

تـذكرت نوتتـه الـتي في جيـب معطفـي وذهبـت مـسرعًا لأُحـضرها وحصلت عليها، وبدأت في تقليب صفحاتها.. وهالني مـا قـرأت عـن تركيـب الإكسير الذي يقوم بتركيبه، والـذي كتبـه ذلـك العـالم في وصـفة تحـضيره، حيث قال:

المزيج الحادث من الخلايا الجذعية الجنينية بعد الحصول عليها من الطريقة الثانية العالمية.

وحقاً أنا أعلم ما يقول عن تلك الطريقة الثانية، وهي طريقة الطبيـب العالمي جيرهارت؛ حيث عزل هذه الخلايا من الأنسجة الجنينية التي حصل عليها من الأجنة المجهضة (قام العالم بأخذ الخلايا من المنطقـة الـتي تكـون الخصيتين والمبايض في الجنين لاحقاً «الخلايا الجرثومية الجنينية»).

وتابعت القراءة مندمجاً مع كلماته..

بعـد الحـصول علـى الخلايـا الجذعيـة الجنينيـة بالطريقـة الثانيـة العالمية، وجعلها تمتزج مع محلول من سم العقارب والأفاعي ومستودع الـسم لديهم والغدد اللعابية للعناكب التي تغزل الخيط الرفيع الذي يكون به خيوط

الحرير والتي يبني بها بيوته، مع القليل من التحليل الكيميائي لها، وأجد بعض الرموز الكيميائية والمعادلات التي لا أفهم منها شيئًا، لأنها كُتبت بشفرة خاصة لا يفهمها عالم كيمياء نفسه.. رموز وعناصر كُتبت بأسماء غريبة لا عهد لي بها!

وإضافة محلول من رحيق زهور «عصفور الجنة»، حيث يعتبر أفضل أنواع الرحيق الموجود في طبيعتنا حتى الآن، مع إضافة بعض الملليمترات، وتعد على أنبوب الاختبار من محلول البراعم الخاصة بالصنوبر وشجيرات حبة البركة، ويتم وضع المحلول في جهاز الأوتوكليف لمدة خمسة وأربعين دقيقة، وبفعل قوة الطرد المركزي يتم تصفية المحلول وبدء العمل به.

وقد أظهرت النتائج المبدئية على القرد أورنج أوتنجا تغيرًا مذهلاً في سلوكه العدواني وفكرة سرقة كل شيء حوله.

وما إن تم حقن أكلات العشب به حتى زاد معدل طعامها في اليوم من كيلو جرام واحد إلى خمسة كيلو جرامات. وبفحص جزء من الأنسجة الحية لتلك الحيوانات نجد أن الخلايا العصبية خاصة، وكل أنواع الخلايا الأخرى، تعود وكأنها حديثة الولادة والعمر؛ أي أن ذلك يعطيها عمرًا مديدًا مثل عمرها مرة أخرى، وإن حقنت بالمحلول مرة أخرى أعطاها ذلك عمرًا ثالثًا.

وآكلات اللحوم.. نرى الفئران تأكل أقفاصها المصنوعة من الحديد الصلب بكل سهولة، وكذلك القطط، ويزداد معدل طعامها إلى الضعفين هي الأخرى.

ولكن القرد أورنج أوتنجا كانت له صفات أخرى مكتسبة تميزه عن كل تلك الحيوانات بعد الحقن بالإكسير؛ حيث ازداد حجم الخلايا وزادت قوتها ورجعت إلى سابق عهدها كأنها حديثة الوجود، ولكن زاد مستوى العدائية فيه، حيث يسرق كل شيء ولا يهاب شيئًا ولا حتى الإنسان.

وبتجربة صفعه يرد لك نفس الصفعة، بل وأقوى، وأصبح لا يسير على أقدامه الأربع، ولكن يسير على قدمين فقط، مع تحور بسيط في عظام الجمجمة!

ماذا يعني هذا الكلام بالنسبة لك أيها العالم المجنون؟

ما الذي تبحث عنه وتريد التوصل إليه؟

ماذا يفعل ذلك الإكسير؟

ولماذا قمت بتجربته على أورنج أوتنجا خاصة؟

هل لأنه أشبه الكائنات بالإنسان إلا في بعض التحورات الهامة التي تجعله قردًا وتجعلني إنسانًا؟

وها أنا أسترد وعيي مرة أخرى وأبدأ بقراءة باقي كلماته التي أصابتني بخيبة أمل في حياتي بعد أن أفنيت أربعين عامًا في اللهث وراء أشياء أساسًا موجودة، ولكن غير مكتشفة فقط لا غير.

أما التجربة على الإنسان وعلى أنسجته الحية أولاً كانت تؤدي إلى الإصابة بخلايا سرطانية من النوع الخبيث، بحيث تدخل الخلية السرطانية وتصور المحتوى الجيني لها على الخلية السليمة فتحولها إلى خلية سرطانية مثلها! وتتكاثر الخلايا السرطانية بسرعة مهولة لا عهد لنا بها، بحيث تجتاح العضو كاملاً في مدة لا تزيد على أربعة أيام، ويؤدي هذا إلى استئصال العضو كاملاً لو كان المحلول ما زال يسير في الجسم.

هذا يعني بما لا يدع مجالاً للشك أن من يحقن بهذا المحلول يصاب بورم خبيث ولكن تستدعيني بقية الكلمات إلى قراءتها مرة أخرى.

ولكن مع إضافة الخلايا الجذعية الجنينية التي تحور الخلايا الخبيثة إلى خلايا مشابهة للخلايا داخل أعضاء وذلك بتكاثرها ونموها الواضح على الخلايا السرطانية التي تحولها إلى خلايا حية طبيعية مرة أخرى بحيث تختفي جميع الخلايا السرطانية في مدة أربعة أيام من بداية الحقن بالخلايا الجذعية الجنينية مع إجراء تحليل كيميائي لها.

إذن هذه فائدة الخلايا الجذعية الجنينية في المحلول..

وهذا يؤكد افتراضي أن ذلك العالم هو السارق الرئيسي للخلايا الجذعية الجنينية من أولئك السيدات، وأنا متأكد الآن أن ذلك الطبيب حديث التخرج هو المشارك الرئيسي في هذه القضية، ولكن كيف له أن يعلم كل ذلك وهو طبيب حديث التخرج؟!

لا بُدَّ أن ذلك العالم قام بتعليمه ذلك الفن في الاستئصال، ومن المؤكد أيضًا بما لا يدع مجالاً للشك أنهما لهما علاقة وثيقة ببعضهما. وكانت أولى تجاربه على إنسان هي تجربته الفريدة على رهف ابنة الـ23 ربيعًا.

والآن بقي لي أن أعلم التركيب الكيميائي والمعالجة الكيميائية التي يقوم بها هذا العالم لمعرفة التكوين الرئيسي لذلك الإكسير الذي يقول إنه «إكسير الحياة».. ولكني أعتقد فعلاً أنه «إكسير للحياة» لما له من صفات مهمة جدًّا في التأثير على الخلايا البشرية والحيوانية، والتطور العظيم الذي حدث للقرد أورنج أوتنجا، والذي حدث مع رهف، وقد يكون الذي حدث معي أنا الآخر؛ فأنا حلمت عدة أحلام عجيبة لما رأيت من حاضر وماضٍ غائب ومستقبل قريب تجعلني بما لا يدع مجالاً للشك أوقن بأنه تم حقني بهذا المحلول!!

نعم.. لقد حقنني بهذا المحلول وأنا أشاهد تلك الصورة العجيبة التي جعلتني لا أشعر بما حولي.. هل كانت هذه الصورة محط إعجاب للجميع

وحتى لرهف بما لا يجعلها تشعر بالحقنة تدخل إلى شرايينها وبها ذلك السائل العجيب والإكسير الخفي؟

ولكن أستشعر من كلمات ذلك العالم أنه قام بحقن تلك الفتاة من الكلمات الأولية التي كتبها عن نظريته في النوم؛ أن الاتصال بين العقل الواعي واللاواعي يفتح لنا سرداب الماضي والمستقبل بقوة ليس لها مثيل يتعرض لها الإنسان في تجربته الشخصية مع الحلم الذي يحلمه بعد الحقن بذلك الإكسير.

وكتاب «تناسخ الأرواح» الذي يمتلكه يؤكد ما أقول وصدق استنباطاتي القديمة عن أنه يحضر لإكسير عجيب الصفات، ولكنه حقاً مذهل للبشرية؛ إذا كان ما وصل إليه صحيحًا فهو حتمًا عالم ليس كمثله أحد.. ولكنه سفاح.. لقد قتل الكثير من الناس، وها هي أدمغتهم تجدها عنده في المعمل مقطعة طولاً وعرضًا، وانتزع منها منطقة الميهاد وتحت الميهاد، ومحفوظة في الفورمالين لإجراء التجارب عليها.

ولكني إن كنت مكانه لفعلت ذلك في سبيل العلم.

هل هو من قتل زوجته؟ أقصد رنا..

ولكنه كان يحبها حبًا جماً، كما قال حارس العمارة.

ومن قتل الحارس السابق؟ هل هو أيضًا؟

فالحارس الحالي أخبرني أنــه مـات في حادثـة مروعـة وعجيبــة ولم يعرف القاتل حتى الآن لأنه كان متخفيًا، لم يره أحد!

وكيف لم أره في الشقة في أثناء وجودي ولم أسمـع حتـى وقـع أقدامـه تخطو على الأرض؟

هل كان عند تلك الفتاة رهف في شقتها في أثناء وجودي في شقته؟

يجب أن أذهب إلى رهف لمعرفة كل شيء عنها أو حتى لتقـوم بـسرد قصتها لي..

ونظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى السابعة صباحًا، وهـذا يـدل على أني انشغلت بالتفكير في تلك القضية لمدة **6** ساعات دون أن أدري بالوقت وحتى لم آخذ قسطًا من الراحة يعيد النشاط إلى جسدي.

– 13 –

مذكرات رهف تفتح جعبتها لي

أسرعت إلى سيارتي وأدرت المحرك وانطلقت ذاهبًا إلى تلك الفتاة، فقد تكون هي الحقيقة بعينها على ما يفعله هذا العالم.

ها أنا أمام العمارة الآن سوف أدخل في غياب الحارس.. ولكنه غير موجود بالفعل.. إذن هي الفرصة.. خرجت من السيارة وصعدت درجات السلم ببطء لاهثًا من فرط التعب الذي أحاط بي.. وكانت تقطن في الدور الرابع.. وها قد وصلت بعد مجهود شاق في صعود تلك الدرجات من السلم.. طرقت الباب.. مرة.. والثانية.. والثالثة.. ولا أحد يرد..

وبسرعة لم يأتِ في بالي أي شيء إلا أني وجدت نفسي أرتطم بالباب بقوة لينفتح على مصراعيه وأراني داخل الشقة، ولكني اندهشت من تلك القوة المفاجئة التي تخللت جسدي وأنا أقوم بكسر الباب، ولكنها لم تشغل بالي وضغطت على زر الضوء لأرى أمامي.. وبحثت في الشقة عن الفتاة ولم أجدها، ودخلت غرفة مكتبها.. مليئة بالكتب عن الحقوق والنقد والأدب والعلوم وغيرها.. وبحثت في جميع رفوف المكتبة عن أي خيط يدلني على طريقة تفكيرها.

وفي المكتب بحثت أيضًا ووجدت مذكراتها في أجندة ضخمة.. وبدأت في تقليب صفحاتها. ووقع نظري على كلماتها من سنة 1897.. ها؟! كم؟!

1897 ماذا يعني هذا؟!

يوم 13 نوفمبر!

وكتب تحت تلك الكلمات: هذا عيد ميلادي السابع والثمانون، وأنا أرى أولادي وأحفادي تملؤهم السعادة بالاحتفال بعيد ميلادي، ولكني أظن أنه عيد ميلادي الأخير، أنا أعتقد أني سأموت.

وفي الصفحات المقبلة أجد التاريخ يستمر ويستمر إلى سنة 1930 يوم 13 نوفمبر، وتقول فيه: ها أنا الآن أبلغ من العمر الكثير، ولا أراني أستطيع إحصاءه بعد تجرع ذلك الدواء الذي أعطاه لي المهندس إبراهيم الطناني، وقد قال إني سأكون على ما يرام وبخير!

ما هذا الدواء؟! هل هو الإكسير؟!

ثم كم كان عمر هذا المهندس عندما أعطاه لها؟

هل قام بتجربته على نفسه أولاً قبل أن يحقن تلك البريئة به؟ قد يكون فعل ذلك.. أو لا.

قد يكون قام بتجربته أولاً على تلك المسكينة ثم قام بتجرعه بعدها.

لقد كان عالمًا منذ فترة بعيدة جدًّا، وهذا يدل على أنه عليم كل العلم بما يصنع.

ورأيت في الصفحات المقبلة كلماتها تسرد تاريخ حياتها وقد تعدت المائة عام.. وتكتب بخط مفهوم كأنها شابة لا تعاني من التهاب أعصاب أو من أي مرض يصيب العجائز.

ووقعت كلمات هذه الصفحة علي كأنها الصاعقة والطامة الكبرى، حيث كتبت 13 نوفمبر 1957.. إنه عيد ميلادي 147 في هذه الدنيا. نعم فلقد عشت 147 عامًا، بفضل ما فعله بي هذا العالم إبراهيم الطناني؛ لقد أعطاني ضعف عمري مرتين، وها أنا أيضًا أبدو في ريعان شبابي فتاة تبلغ من العمر 23 عامًا أستطيع الإنجاب وكأني في مثل عمري فعلا..

وخطيبي أحمد متولي أيضًا يبلغ من العمر الكثير وهو قد يكون يكبرني ببعض الأعوام حقيقة، وإنما أمام الناس فهو طبيب حديث التخرج كما يقولون له، ويعمل في مشفى للأطباء حديثي التخرج، ولكن علمه الشديد بالطب جعله عالمًا وقد قام بتعليم المهندس إبراهيم الطناني الكثير من العلوم غير التي كان يتعلمها.

ماذا تعني تلك الكلمات؟

هل السارق الحقيقي هو الطبيب أحمد متولي وليس هذا العالم إبراهيم الطناني؟

من المؤكد أن السارق الآن هو الطبيب أحمد متولي ويظهر الآن أنه ليس طبيبًا حديث التخرج من كلمات منى عنه، ولكني لا أصدق عيني.. هل يعيشون منذ القرن التاسع عشر ويبلغون من العمر أكثر من المائة عام.. هل هذا يعقل؟!

وبدأت في التقليب مجددًا في تلك المذكرات لمعرفة شيء، وها أنا أجد اليوم الذي تقابلنا فيه وتكتب فيه عني: اليوم **15/4/1958**، كنت مع خطيبي في ضاحية من ضواحي محافظة الجيزة لشراء خاتم ذهبي لزواجنا الوهمي أمام الناس، حتى لا تكثر التساؤلات علينا. عند الصائغ المفضل لي الذي كنت أتعامل معه وأنا ابنة الثمانين ربيعًا.. لقد كان شابًا والآن أصبح عجوزًا جدًا، ولكني في الحقيقة أكبره بسبعين سنة.

هو لا يعلم شيئًا عما حدث منذ المرة الأولى الذي رآني فيها، وقد علمت أن الخاتم لامرأة ماتت منذ خمس سنوات، وأنها في حقيقة الأمر زوجة المهندس إبراهيم الطناني، رنا، الذي قتلها بيديه عندما حاولت تقطيع صورة تلك المرأة!

الآن الحقيقة تتشبث بيدي وعروقي! لقد قتلها بالفعل.. ومن غيره؟

من أجل تلك الصورة!

ومن غيره قد يفعلها؟ يقطع رأسها!

أسترد الكلمات التي يتلعثم بها لساني من هول الفاجعة التي أحطت نفسي بها، فأنا أمام عالم وقاتل وطبيب وسيدة بلغت من العمر عتيًّا، وأنا من أقحمت نفسي في كل ذلك بسبب ولعي بالبيولوجي، وبسبب دهشتي من تلك السيدة المسنة ابنة الـ23 ربيعًا!

قتل زوجته بسبب تلك الصورة التي في مكتبه والتي يجلس أمامها بالأيام، وأنا الوحيدة التي تعرف هذا السر دون غيري، حيث كنت ذاهبة لأخذ الإكسير ووجدته يقتلها ويقطع رأسها وأنا مختبئة حتى لا يراني ويضيع علي عمري كله الذي أعيشه شابة كما أنا بفضله!

وقلت هذا السر لخطيبي أحمد متولي وهو أيضًا يعلمه، ولكنه لا يقول ولن يقول، ولن يقول أحد منا، لأن الإكسير ذو شفرة لا يعلمها إلا هذا المهندس.

وها أنا أعود إلى الصائغ مرة أخرى.. وينظر إلي رجل عجيب الشكل يبلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا على ما أعتقد، حيث كان أمامي كتابًا مفتوحًا، وقد حذرت العالم إبراهيم منه أنه قد يبحث وراء ما رأى، لأنه

عالم عبقري في مجال علمه. وعندما أخذت خاتم زوجته وارتديته وجاءتني تلك الغيبوبة علمت كل شيء عن زوجته ولكنه لم يعرف كيف علمت ولن يعرف إلا إذا قرأ هذه المذكرات.

لقد كان خوفي أن يبحث وراءنا، ولكن المهندس طمأنني وقال إنه لن يستطيع الوصول إلينا، ولكن كان للحارس رأي آخر بعدما وجدنا هذا العالم بكل سهولة وفطنة.

هو يبحث عن علتي وعن حالتي وكيف أصابتني تلك الحالة، وكيف أرى الماضي والمستقبل، وكيف أنظر إليهم وأعلم أشخاصهم بسهولة.

بعدما سألت الحارس عن المهندس قال لي إن هناك آخر سأل عنه أيضًا، وبوصف ذلك الشخص اتضح أنه العالم العبقري أ. رمضان.

لقد كان خوفي من أن يكشف فعلتنا أكبر بكثير من أن أفاجأ بعبقريته.

لم أنم منذ ذلك اليوم بسببه، ولكني أسرعت لإخبار خطيبي، وقد تكفل بإخبار المهندس إبراهيم الطناني بذلك.

لقد تحدث مع الحارس عبر الهاتف ثم أسرع بالمجيء إلي وقال لي إنه ترك باب شقته مفتوحًا كمصيدة يصطاد بها ذلك العالم العبقري بكل

سهولة لأن شغفه وولعه بما رأى سيأخذ الجزء الأكبر من تفكيره ما لم يستحوذ تمامًا على مجمل تفكيره.

وها أنا أراه يختبئ بين القناديل في الشارع وينظر ويتلفت يمينًا ويسارًا وكأنه هارب من حكم عليه بالإعدام، ودخل العقار.

أنا خائفة من أن يراني أو يسألني، ولكن لن يأتي إلى هنا أبدًا، وإن طرق الباب لن أفتح.. لا يمكن أن أراه.

لا.. إنه يصعد إلى شقة المهندس، الآن سيقع في مصيدة المهندس، نعم سيقع.

إنه هنا الآن.. أشتم رائحته وأسمع وقع أقدامه في شقة المهندس المختفي في المرحاض ينتظر أن تقوم الصورة بعملها.. ينتظر العالِم أن يذهب إلى العالَم الذي ذهبت إليه.. أن يسبح مع الصورة.. أن ينقطع عنده الشعور بالعالم الواقعي ويتوه في عالم الخيال السحري الذي ستقوم الصورة بفعله..

والآن يدخل المهندس إليه وهو لا يشعر ولا يدري وإنما يسبح في خيالات الصورة. لن يرى المهندس أبدًا.

ها هو المهندس يحقنه بالإكسير كما فعل معي. أنا أتذكر جيدًا ماذا حدث معي، وها هو يفعله مع العالم العبقري أ. رمضان.. سيهبه عمرًا جديدًا

دون أن يدري أو يشعر، إن لم يتحكم في أعصابه ويهيئ نفسه لتلك المعضلة فسيُجن حتمًا، لن يستطيع عقله تحمل تلك الصدمة.. لن يحتمل إذا انفتح أمامه حجاب الزمان على مصراعيه يعبث به متى يشاء ووقتما يشاء.

لن يحتمل كما لم أحتمل أنا أيضًا.. في بادئ الأمر لم أشعر بالمهندس وهو يحقنني بذلك الإكسير.. لم أشعر بما فعله بي.. وإنما كل ما أعرفه كل الأحلام التي حلمت بها.. لقد انفتح أمامي حجاب الزمن الماضي والحاضر والمستقبل في أحلامي.. أتكلم كل اللغات.. أتحكم في حلمي كيفما أشاء.. وأزور كل بلاد العالم وقتما أشاء..

ولكن بعد أن وضعني على هذا الجهاز الغريب وبعد أن حدد جهاته الثلاث على منتصف ومركز عقلي وحقنني بذلك الإكسير مجددًا لم أشعر بنفسي وإنما قام هو بتسجيل ما يحدث معي.

لم أتذكر لأول مرة طبيعة الحلم من أوله كما أتذكره كل مرة، وإنما لم أتذكر شيئًا!

لقد كدت أجن ولم أدرِ ماذا أسمع وأنا أتكلم لغة غير اللغة وفي مكان غير المكان الذي كنت فيه.. لقد كان ذلك بمثابة جندول يقع على رأسي جعلني أدخل في غيبوبة شنعاء لا أدري ماذا يحدث حولي.

– 14 –

هل يمكن؟

هل يمكن أن يجيد إنسان لغة لم يتعلمها؟ وإذا لم يكن هو الذي يتكلم فمن كان يتكلم؟ وكيف يوجد اثنان في جسد واحد؟

نعم.. أعرف هذا الصوت جيدًا، إنه صوت جدتي العزيزة التي ماتت منذ أكثر من مائة وخمسين سنة، كيف هذا؟ هو رجل ضخم الجثة وهي كانت امرأة صغيرة الحجم لها صوت منخفض.. كيف عرفها وكيف قلد صوتها؟ هل صوت هتلر الذي تكلم به أيضًا خرافة الألمانية العامية التي تكلم بها وهو لا يعرف أساسًا الألمانية الفصحى؟ هل يضحك من أنه نفس الصوت تمامًا؟ لماذا يدخل فيما يشبه الغيبوبة وهو يتكلم؟!

كم من مرة صفعته وهو لا يحس ولا يدري ولا يشعر.. هل هو المس الروحي؟ لا لقد قرأنا عليه كل القرآن والإنجيل وذهبنا للشيوخ.. وغير معقول.. لا يوجد مس شيطاني، هذه تخاريف لا يمكن أن تكون معقولة، وما يحدث حولنا يمكن رصده في إحصاءات ومعادلات ويمكن دراسته وملاحظته والتنبؤ به، لا مكان لهذه التخاريف، كنت أرفض بشدة هذا.

أشعر أن ما قلته ليس هو كل الحقيقة.. نعم، فهناك أشياء كثيرة غير

مفهومة؛ هذا الراديو الصغير الذي أحتضنه والذي لا يزيد حجمه على قبضة يدي يلتقط من الهواء كلمات، هذه الكلمات كانت تسبح أمواجًا في الفضاء، ومن قبل أن أفتح الراديو كانت هذه الأمواج تذرع الفضاء حولي، لا ترى لا تسمع لا تشم، لا تحس، ومن قبل اختراع الراديو كانت هذه الموجات اللانهائية موجودة وكان الفضاء مكدسًا بها من دون أن تدرَك أو تُرَى، فهل معنى هذا أنها كانت دجلا وهذيانًا لا وجود له؟ ودرست في علم الفيزياء سابقاً أن البرد موجود وإنما لا نستطيع رؤيته، وإننا يمكننا تعريفه بأنه غياب للحرارة، والظلام أيضًا لا يمكننا رؤيته ولكنه أيضًا غياب الضوء، وهو غير محسوس، أيعتبر هذا دجلاً وتدليسًا أيضًا؟ نحن في العادة لا نعترف إلا بما نراه ونلمسه، وهذا غرور.. فما أقل ما نرى وما أقل ما ندرك في هذه الدنيا.

هل كل شيء له شفرة خاصة به؟ هل وَشّ الموجات المنبعث من الراديو له لغة أخرى لا أفهمها؟ هل هي ضجة أم مثل إشارات مورس لها شفرتها ومفاتيحها؟

قد يكون كذلك فكل شيء حولنا له لغة خاصة به لا يفهمها إلا بنو جنسه فقط، ولا نفهمها نحن لجهلنا بها كما أعتقد!

ولماذا كلما ارتديت شيئًا علمت من كان يرتديه قبلي ومن استخدمه

وكل شيء عنه، وذلك بفعل ذلك الجهاز الخفي الذي لم أدرِ ما تركيبه وإنما المهندس فقط هو من يدري، وحتى خطيبي المسن الأشعث لا يدري أنه جهاز غريب في تركيبه له أنبوب كبير وكأنه أنبوب تفريغ كهربي، وثلاث أسطوانات بجانبه تمتلئ بمحلول أزرق اللون، وثلاث مقصات أحرار في الحركة يضبطها المهندس كيفما يشاء على الرأس.. مركزها تحديدًا.

بعدما قرأت تلك الكلمات وأنا مثلج الأطراف وعقلي لا يعمل بأي شيء، وإنما أتفكر في تلك الكلمات المبهمة والمحيرة التي في الوقت نفسه جعلتني أصم وأعمى عما أرى؛ لقد حقنت بالإكسير دونما أدري.. دونما أشعر.. وهو الآن يجري مجرى الدماء في شراييني، نعم لقد كنت أحلم كل تلك الأحلام بسبب الإكسير، بسبب سريانه في شراييني وأوردتي.. في دمي.

لم أشعر حينما حُقنت بذلك الإكسير بسبب تأثير الصورة، إنه يضعها عمدًا.. وترك الباب مفتوح عمدًا..

لقد كان يعلم متى سوف آتي من حارس العقار، لقد كان يختبئ في المرحاض ينتظرني حتى أغرق في غيبوبة الصورة.. حتى أنفصل عن العالم الخارجي.. حتى أبتعد عن مكنوني وعن عقلي وعن إرادتي.. ويحقنني بالإكسير وأصحو من غيبوبتي ونومي أجدني في فراشي ومغطى بلحافي وكأن شيئًا لم يحدث.. حتى أجن.. حتى أتصور أن كل هذا محض كذبة.. محض

حلم لا أكثر.. حتى لا أبحث وراءه ولا وراء الطبيب ولا وراء رهف..

هذه الحقيقة ولكني لم يحدث لي ذلك، لقد كانت إرادتي وتصديقي لما رأيت أول مرة طاغيين علي أن أجن، كما يقولون..

أم أن عبقريتي ومحصولي العلمي هما من جعلاني أفسر الأمور بطريقة حسنة ولا أجن؟

وكيف أخذت عمرًا مثل عمري مرة أخرة؟

هل الآن لن أموت؟ سأعيش طويلاً لأبد الدهر؟

ولكن كيف سيبدو شكلي وملامحي بعد الحقن بالإكسير؟ هل سأظل كما أنا أم سأتحول إلى شاب مرة أخرى مثل رهف وأحمد متولي؟

ولكن قد لا يتغير شكلي مثل المهندس إبراهيم الطناني وأظل كما أنا، ولكن من أين أعرف؟ هل كل هذا التغير من فعل الجهاز؟

ولكن ما هذا الجهاز العجيب الذي تتكلم عنه تلك العجوز في باطنها الشابة في ظاهرها؟

جهاز عجيب ولم ترَ مثله لا هي ولا خطيبها.. هل هو مصنّع يدويًا؟ هل صنعه ذلك المهندس المجنون؟ أعتقد ذلك بعد كل ما رأيت من أمور تذهب عقل الرشيد، عن عقل وعبقرية وتفكير ذلك الرجل لا يكون الأمر

صعبًا أن يصنع جهازًا يصدر إشعاعًا على المخ!

لقد قالت إنه يضبط المقصات على مركز المخ.. ماذا يفعل بمركز المخ؟

وتنطلق في ذهني فكرة وكأنها رصاصة اخترقت مخي وخرجت من الناحية الأخرى بعدما تذكرت الأدمغة في معمله التي نزع منها منطقة الميهاد وتحت الميهاد، وأتذكر الشريحة التي وجدتها تحت المجهر الحديث والتي كانت تحتوي على نسيج من منطقة الميهاد وشريحة ملقاة بجانب المجهر تحتوي أيضًا على نسيج من منطقة تحت الميهاد..

ولكن من يدري ما نوع الإشعاع الذي يصدر عن ذلك الجهاز؟ وأين يوجد الجهاز؟

لقد دخلت المعمل مرتين ولم أرَ أي جهاز أمامي، كل ما رأيت أنابيب الاختبار والمواقد والحيوانات، ولم أرَ أي أثر لذلك الجهاز العجيب ذي السوائل الزرقاء. ثم ما هذه السوائل؟ وما تركيبها؟ وما دخلها بالجهاز؟ ثم كيف تكلم أكثر من لغة بصوت هتلر وجدتها العجوز التي ماتت منذ قرن ونصف القرن؟

هل هو مس شيطاني؟ لا أعتقد.. فهي قد أقنعتني بما قالت في مذكراتها وهذا ما كنت سأقوله لو كنت مثلها دارسًا علم الفيزياء. تحضير

أرواح.. هل يضبط نفسه ليكون راديو أو «ترانزستور» يتلقى إشارات من الجو ويجمعها في عقله ثم يخرجها؟ لقد كنت أبحث في هذا الموضوع كثيرًا منذ أكثر من خمس سنوات بعدما علمت بعض الأسرار عن الغدة الصنوبرية، تلك الغدة الصماء التي تفرز الميتولاين، لقد كانت تجربة غريبة وفريدة في نوعها، وخرجت منها بأكثر من حقيقة؛ لقد قرأت بحثًا عن تلك الغدة جعلني أشعر بالجنون والتخلف العقلي، لقد بدا لي أني لا أعلم شيئًا، وأظن وقتها أني شعرت أن الجهل طغى على عقلي وتحولا معًا إلى جسم آخر لا فائدة في استعماله.. بالٍ.. رخيص.. مكفهر.. بليد.

غدة صماء في مخ الإنسان وهي الغدة الصنوبرية التي لم يكتشف العلماء إلا وظيفة واحدة لها وهي إفراز هرمون الميتولاين فقط، وهو هرمون مانع للأكسدة في الخلايا، ويمنع تكون الخلايا السرطانية، ولكن لم تكتشف لها أية وظيفة أخرى، ولكن بعد دراستي الشاملة للمخ واستراقي دخول المشرحة صباحًا وتأخري عن العمل بسبب ذلك، قمت بفحص العديد من الأدمغة البشرية من أطفال ونساء ورجال، وخرجت بعدة حقائق هامة جدًّا:

أن هذه الغدة في الأطفال أكبر حجمًا منها في البالغين، وهذه الحقيقة تفسر شيئًا واحدًا؛ أن الأطفال يحلمون أكثر من الكبار، ويرجع السبب للقلق الكبير الدائم من متطلبات الحياة ومشاغلها والنوم غير المنتظم، على عكس

الأطفال.

تجويف عظام الجمجمة عند معظم النـاس يكـون ذا سمـك واحـد إلا البعض منهم تكون عظام الجمجمة أرق وأرفع من الآخرين.

وتوصلنا هذه الحقيقة إلى أمر واحد فقط؛ أن هـؤلاء النـاس يمتلكـون عقولاً، أو بالأحرى أدمغة، أكبر من الآخرين، ويرجع السبب في رقة العظـام إلى تضخم حجم المخ وضغطه المستمر على عظام الجمجمة، مما يجعلها تنضغط وتكون بنفس القوة تقريبًا، مما يـدل علـى أن هـؤلاء النـاس كـانوا كـثيرًا مـا يستخدمون عقولهم.

وأثبتت الدراسات والأبحـاث الـتي نـشرت مـن قبـل الـدكتور جـون هارفي، وهو الـدكتور الـذي قـام بتـشريح دمـاغ أينـشتين، وأكـد أن جمجمـة أينشتين كانت رقيقة جدًّا عن الطبيعي، وجاء في هذا البحث، الذي نشر بـ7 لغات، أن الغدة الصنوبرية عند أينشتين كانت أكبر من الحجم الطبيعي بـ3 أضعاف. إذًا ما السبب في تضخمها بهذه الطريقـة؟ ولـو صـدقنا كـلام العلمـاء فسيصل بنا الأمر من التأكد بأن أينشتين كان ينام كثيرًا جدًا.

وأخذ العالم نيلز فلادفستوك هـذه النظريـة وبحثهـا جيـدًا وأكـد أن حجم هذه الغدة كي يصبح بحجم غدة أينشتين يجب أن يكون أينشتين قـضى نحو 35 عامًا نائمًا نومًا متواصلاً في الظـلام، ولكـن جـاءت تـصريحات أهـل

أينشتين عكس المتوقع تمامًا؛ وهي أن أينشتين كان لا ينام أكثر من 4 ساعات في اليوم، ويجلس مدة الـ20 ساعة الباقية في مكتبه يفكر!

عندما أخذت عينة من الغدة الصنوبرية وقمت بفحصها تحت المجهر وجدت أنها تشبه الخلايا السرطانية شبهًا كبيرًا إلا في شيء واحد؛ فأنوية الخلايا في الغدة لها اللون الأصفر المخضر، وفي الخلايا السرطانية الخبيثة يكون لون الأنوية أصفر فاتحاً، ولكن نفس الحجم بنفس الشكل.. وذلك في الناس الذين لهم أدمغة أكبر من أدمغة أقرانهم فقط، أما الآخرون فتركيب أنوية الخلايا عادي والخلايا نفسها عادية تمامًا، وهذا ما جعلني أتوقف أمام حقيقة أخرى..

إذا كان هؤلاء البشر كثيرًا ما يستخدمون عقولهم فهم لا ينامون إلا قليلاً.. أو على الأقل لا ينامون إلا الأوقات الطبيعية فقط، إذًا فهذه الغدة أيضًا تنشط في أثناء التفكير، ولكن أي نوع من التفكير؟ فكلنا نعلم أن مراكز التفكير جميعها في الجزء الجبهي فقط من المخ، ولكن ما نوع التفكير الذي يرتبط بهذا الجزء من الدماغ المتوسط؟ فهذه الغدة تقع في الجزء الأوسط بالتشريح الطولي والعرضي للمخ.. نجدها هي مركز المخ تمامًا، ومن خلال تشريحي الدقيق للمخ البشري وجدت أن هذه الغدة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمنطقة الميهاد، وهي المنطقة المسئولة عن السيالات الحسية، ما عدا الشم،

وأيضًا متصلة بمنطقة تحت الميهاد التي يوجد فيها مراكز كثيرة كمراكز الإحساس بالجوع والشبع والعطش والارتواء ومراكز الأفعال الانعكاسية ومراكز النوم. وترتبط الغدة من تجاهها بمنطقة الهيبوثلامس، وهي منطقة تحت الميهاد والميهاد، بأعصاب مركزية؛ أي أنها هي من تتحكم في عملهما.

ووقفت أفكر فيما يعنيه ذلك.. إذا كانت منطقة تحت الميهاد بها مراكز النوم والتي تفرز هرمون النوم والغدة الصنوبرية هي التي تفرز هرمون المينتولاين في أثناء النوم فقط، أو بالمعنى الأفضل في الظلام، وتتحكم في عمل هذا الجزء، إذًا فيكون الأمر كالتالي: ترسل العين السيال العصبي المحمل بكمية الضوء الذي تراه العين إلى منطقه تحت الميهاد، فيرسلها بدوره من خلال الأعصاب المركزية إلى الغدة الصنوبرية لتحدد من خلاله كمية إفراز هرمونها، فكلما قل الضوء زادت هي من إفراز هرمونها المينتولاين.

تتحكم الغدة الصنوبرية في إيقاع الجسم بصورة عامة، وهي تعمل في تناغم شديد مع ميهاد المخ (الهيبوثلامس)، حيث يتحكم الضوء في كم وإفراز هذه الغدة.. فتفرز هرمون الميلاتونين. كما تحتوي الغدة الصنوبرية على خريطة كاملة لحقل ومجال الرؤية من كلتا العينين مما ينبهها للتحكم في إفراز الميلاتونين عن طريق كمية الضوء الداخلة إليها.. لذا تعارف العلماء على تسميتها بالعين الثالثة، مما يجعلنا

نقف أمام حقيقه أخرى، وهي أن الغدة الصنوبرية هي الساعة البيولوجية للجسم التي طالما تحدث عنها العلماء، فهي من تجعل منطقه تحت الميهاد تفرز هرمون النوم إذا وصلها السيال العصبي من العين محملاً بكمية قليلة من الضوء، وهي أيضًا من تحدد الحالة النفسية للإنسان بتحكمها الكامل في منطقة الهيبوثلامس.

وعندما وقفت عاجزًا بخبرتي الطبية وعلمي أمام حقيقة هذه الغدة رجعت إلى الكتب والمقولات الفلسفية التي قالها الفلاسفة الإغريق، أمثال أرسطو ورينيه ومتشجاني هوانجوا، وأجمعوا كلهم على أمر واحد فقط، وهو أن الغدة الصنوبرية مركز الاتصال بين العالم الحسي وعالم الخيال.

وقال عنها رينيه: إنها مستقر الروح الإنسانية.

هل من هذا الاعتقاد يكفي أن نقول إن مركز الروح الإنسانية في هذه المنطقة، ولكن ما الدافع إلى اختيار هذه الغدة بذاتها دون أي جزء آخر بالمخ؟!

وعدت خائبًا إلى كتب الطب والحيرة تقتلني حتى بحثت صدفة في كتاب العالم الجليل ابن النفيس «شرح تشريح القانون» الذي يوضح فيه تشريح كل منطقة من مناطق الجسم، وقد قال ابن النفيس في كتابه هذا:

إن منطقة منتصف الـدماغ البـشري إذا شـرحناها طـولاً وعرضًـا هـذه المنطقة هي مركز الدماغ البشري وهـي المسئولة عـن الـروح البـشرية بتقلـب مزاجها.

وهنا أيقنت الحقيقة الميتـة أخـيرًا؛ أن هـذه الغـدة هـي مركـز روح الإنسان فعلاً.. إذًا لنقل الآن بكل تأكيد إن هؤلاء الناس وعلى رأسهم أينشتين كانوا يفكرون كثيرًا في الروح البشرية.. وكيف وجدت أو خلقت؟ وما الحقيقة وراءها؟ مما جعل الغدة تتضخم عندهم مع اختلاف منافسيهم، ولكـن تطـرق إلى ذهني أمر غريب، جعلني أشعر أني مجنون ولا شيء آخر؛ نعلـم جميعًـا أن الموجات الكهرومغناطيسية موجودة حولنـا في كـل مكـان، الـتي نجمعهـا أخيرًا في جهاز الراديو لنسمع محطة القـرآن الكـريم، أو أي محطـة أخـرى، فالصوت من الموجـات الكهرومغناطيـسية، ولكـن الغريـب لـيس ذلـك، إنمـا الغريب هو أننا نمتلك جهازًا مثل الراديـو تمامًـا في عقولنـا، والـدليل الـذين ينيمون الناس مغناطيسيًّا، والذين يقومون بتحضير الأرواح على أجسادهم.

بحثت عن رجل يعمل في مثل هذه الأعمال حتى هداني الله إلى أحدهم وعندما جلست وتحدثت معه وسألته عن طبيعة عمليه التنـويم المغناطيـسي، أكد لـي أنهـا عمليـة روحانيـة، وفي بـادئ الأمـر لم أصـدقه حتـى اسـتمر في الحديث وقال لي: إننا نقوم بعدة إيحـاءات للإنـسان حتـى يثـق بنـا وحتـى

يصدق أننا نملك شخصية أقوى من شخصيته نفسه، ثم نتحكم في عقله، وبعدها يمين يمين.. شمال شمال.. وإنني كنت أعمل بمهنة الطب، ولكن استمررت في هذا العمل لأنه يشعرني بالقوة.

وعندما سألته: أي الأجزاء التي تتحكم بها في المخ أولاً؟

رد من دون تفكير: الغدة الصنوبرية، التي تتحكم في منطقة مركز المخ، ومن خلالها نستطيع التحكم في أي جزء آخر ما دمنا تحكمنا في هذه المنطقة.

وعندما سألته عن تحضير الأرواح، قال لي: إن الأمر بسيط، فما علينا إلا كثرة التأمل لأنفسنا في المرآة، وقد يصل منا الرجل إلى أن يتأمل نفسه مدة **40** دقيقة يوميًّا في المرآة دون أن يرمش له جفن عين، وهذا الأمر يجعل الغدة الصنوبرية أكبر من المعدل الطبيعي، مما يجعلنا نسمع أقوى ونرى أكثر ونقرأ الأفكار أيضًا.

فسألته ضاحكاً: هل تعرف ما يدور في ذهني الآن؟

ورد علي بلا أي مجال للتفكير مما جعلني أرتعب منه وقال لي: إنك تفكر الآن في مديرك في الشغل، وأعتقد أنه زوج خالتك، واسمه وائل سامي محمد المنسي!

وما جعلني أرتعب فعلا هو أنني كنت أفكر فيه في هذه اللحظة، وبعدها قال لي: إذا أردت أن تسمع صوت أي إنسان فاكتب لي اسمه في ورقة، حتى وإن مات، باستثناء شخص واحد لا نستطيع أبدًا أن نحضر روحه ولا حتى صوته، وجميعنا كذلك. فقلت له: من هذا الرجل؟ قال لي: سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكل الأنبياء، فكل من جرب أن يحضر روحه أو يتكلم بلسانه مات.

وبعد كلامه هذا كنت قد كتبت بالفعل اسم سيدنا محمد في الورقة، ولكن جعلني أمزقها بعد كلامه، وقال لي: لقد كتبت محمد.. أصحيح ذلك؟ فأومأت برأسي موافقاً، وبعدها كتبت ألبرت أينشتين (1879 – 1955).

وبعد تأمل مدة 5 دقائق، وجدت الرجل يتكلم الألمانية الفصحى بصوت ألبرت أينشتين فعلاً، فأنا قد سمعت صوته مرارًا وتكرارًا، وتقريبًا كل يوم والآن هو يتكلم بصوته يا الله! ! إذًا فالكلام كله صحيح، وواضح وضوح الشمس!

أكانت روحي إذًا في جسد إنسان آخر يا الله؟!

لقد جننت من التفكير بهذا الأمر، فلا يوجد أي سبب آخر من هذه الغدة إلا أن روحي كانت في جسد إنسان آخر، والسبب الذي جعلني أصدق هذا أن هؤلاء الناس الذين يحضرون الأرواح يتحكمون تحكمًا كليًّا في الغدد

الصنوبرية لديهم، مما يجعلهم يغيرون أرواحهم بأرواح أناس آخرين، ويتكلمون بألسنتهم وطرائقهم ولغاتهم، ثم إذا أراد رجعت روحه إلى جسده مرة أخرى!

وما جعلني أصدق أيضًا هو الأناس الذين إذا أتوا إلى مكان ولم يروه أساسًا من قبل قالوا نحن رأينا هذا المكان قبل ذلك، إنه يبدو مألوفًا، مع العلم أنهم لم يروه قبل ذلك.

هل أرواح هؤلاء الناس كانت تعيش في أجساد سكنت في هذا المكان؟

هل الأمر كذلك؟

وما جعل ظني صائبًا مرة أخرى ما قرأته في الجريدة في مساء الأحد قبل الماضي، أن هناك طفلاً تنتابه حالة أشبه بالصرع، وفي أثناء هذه الحالة يتحدث الفارسية بطلاقة وبصوت رجل يدعى كامليو، مع أن الطفل عربي ولم يتعلم الفارسية قبل ذلك، ولم يسمعها قبل ذلك، هل كل هذا يعد صدفة؟ كل هذا بمحض الصدفة؟

ولا أعتقد ولا أصدق أنه المس الشيطاني، ولكنني الآن أمام سؤال لا يسعني إلا أن أصدقه؛ هل ما ذكره البحث كان حقيقيًا؟!

وهل حقًا روحي كانت في جسد شخص آخر قبل ذلك؟ وجميع

الحقائق التي قابلتني وأنا أبحث عن الحقيقة هل جميعها أكاذيب لا حقيقة لها من الأساس؟ ما السبيل إلى الحل إلا أن أصدق ما كتبت؟

ولكن إذا كان الأمر هكذا فكيف سيحاسبنا الله يوم القيامة بروح كانت في أكثر من جسد؟

قطعت سيل خيالاتي فجأة وأنا أشعر أني أوشكت على فقد عقلي بعد كل تلك الخزعبلات التي قفزت إلى ذهني وأنا أقرأ تلك الكلمات التي كتبتها تلك المجنونة هي الأخرى مثلهم، ونظرت إلى مذكرات رهف وتابعت القراءة وأنا بداخلي شعور أني كدت أصل إلى نصف الحقيقة فلا أدري هل هي الأخرى عالمة في شيء أم ماذا.

ولكن لا أعتقد أنها تعدو فكرة بسيطة، وأنها لا تعلم ما فيها، ولكن تعلم الظاهر فقط من حالتها ولا تعلم أي شيء عن تركيب الجهاز ولا الإشعاع، على ما أعتقد، فما قرأت وما في يدي من كلمات يؤكد صدق توقعاتي وحدسي.

– 15 –

أبحث عن حيلة وتأتي وحدها.. ومذكرات عجيبة

الأمر يتطلب مني خطة محكمة لإيجاد هؤلاء الثلاثة، ومعرفة ذلك العالم..

كيف أجد تلك الحيلة العظيمة التي تجعلني أصل إليهم جميعًا؟ حيلة لا يستطيع أحدهم الكشف عنها ولا حتى معرفتها ولا الدراية بها..

أولاً لأترك كل شيء كما كان مكانه وأعود إلى منزلي من حيث أتيت حتى لا تأتي تلك الرهف على غفلة ولا أدري وقتها ماذا أفعل، ولا أفضل أن أواجهها بمفردها، وإنما جميعهم في وقت واحد!

تركت كل ما في يدي سريعًا ورتبته كما كان وهبطت درجات السلم متسحبًا ولم أرَ الحارس في ذلك الوقت، وكنت مستعجلاً على أن أخرج من هذا المشهد.

وعلى الفور أدرت محرك السيارة، وبعد ذلك بنصف الساعة كنت في بيتي أفكر في تلك الحيلة التي تمكنني من إيجاد هؤلاء المخبولين الذين يصنعون شيئًا لا أدري كم هو مفيد للبشرية، فمنذ حقنت بذلك الإكسير لم أشعر بنعاس أو حتى مرض أو إرهاق، وإنما أشعر بصحة وفيرة وقوة عظيمة

وتفتل في عضلاتي.

شعري الأشعث يركد أول مرة على رأسي منذ سنوات، ولم أشعر بالجوع منذ أيام، وأتذكر لخبطات الأيام السابقة، وأراني ذا ذاكرة حديدية كما كنت في أحلامي التي حلمتها. تخيلت المهندس أمامي مرة أخرى هو الطبيب وهما يعملان في معملهما لصنع ذلك الإكسير، أتخيله وهو قبل كل شيء لا أحد يعرف متى ومن أين جاء. وتذكرت أني عندما كنت في شقته وداخل المعمل أخذت تلك النوتة مع دفتر الملاحظات التي كان يكتبها.

ذهبت مسرعًا أبحث عنهما.. بعدما بحثت في كل شبر من طيات جسدي النحيل وذلك البالطو الذي أرتديه رغمًا عني لشدة برودة الجو، وتقتلني أحلام يقظتي وكأنها ريح هوجاء تطيح بموازين عقلي وترغمني على التمثيلية الخاصة بها، أتخيل ذلك العالم الذي لم أره وكم يكون عمره ومن أين جاء وكيف تعلم كل هذه العلوم ومتى بدأ في صنع ذلك الإكسير ومتى تعرف على رهف وأحمد متولي..

وجدت ذلك الدفتر أخيرًا.. فتحته بيد مرتعشة وأنا أحاول أن أسيطر على رباطة جأشي وأنا قادم على قراءته!

وسطر في أولى صفحاته وباء الكوليرا **1820** أي منذ ما يقارب المائة والثلاثين عامًا!

وسطر بكلمات كبيرة الخط وباء الكوليرا: كان السبب في موت كل أهلي وأنا أعيش الآن وحيدًا منذ ما يقارب الأربعة أعوام أستطيع صنع غذائي بنفسي وملابسي وكل شيء، ولكن ليس هناك علاج لهذا الوباء، ولكني سوف أصنع إكسيرًا للعلاج منه، لا بُدَّ من ذلك، لن أموت في مواجهة هذا المرض، وإن مت فيكفيني شرف المحاولة، وأنا الآن أعي ما أقول لأني بلغت من العمر اليوم أربعة عشر عامًا وأستطيع فهم كل كلمة تقال على مسامعي وكل كلمة تخرج من فمي.

أعتقد الآن أن هذا الرجل يبلغ من العمر ما يقارب المائة وخمسين عامًا، أي عاش على هذه الأرض قرن ونصف القرن، لقد كان بداية تفكيره في الإكسير بسبب وفاة عائلته بهذا المرض، لقد كان طفلاً عبقريًّا ليفكر في مثل ذلك الحل، فلو كنت مكانه بنفس الظروف لكنت سلمت نفسي وزحفت للموت زحفًا لأني صغير نسبيًا على معاندة تلك المرض، ولكنه كان دائمًا قويًّا كما عهدته وعبقريًّا كما أعرفه..

وبدأت في إكمال ما قرأت، ووقعت عيناي على تلك الكلمات وأنا مندهش مظلم الوجه أصم الأذنين، لقد كانت تلك الكلمات أقل ما يقال عنها أنها اعتراف كامل وصريح بخط يد فاعلها على كل تلك الجرائم التي فعلها وكتبها بخط كبير للغاية وكأنه سعيد بما فعل، ويقول في كلماته العجيبة

تلك: قتلت كل من كان حولي في هذا الوقت، حتى زوجتي الغالية رنا، حبيبتي التي عشقتها لمائة عام، وكل أدمغتهم عندي، لقد قتلت زوجتي بمحض إرادتي ولا سبيل لموتها إلا بقتلها، لقد كادت تفُشل مخططي في جذب ضحاياي..

نعم حققت مرادي وصنعت الإكسير الذي كان حلمًا طالما حلمت به، مكونات ليس من الصعب أن أجدها، صنعت مركبًا ليس هناك مثله ولن يكون، أعطيت نفسي من العمر القرنين، وأعطيت رهف من العمر قرنين، وعادت شابة كما الأول لا تتعدى الخمسة والعشرين عامًا، والطبيب البارع الذي جعلني أصبر على قتله بسبب عبقريته الفذة في أداء التجارب والجراحات وإخراج الخلايا الجذعية الجنينية من الحبالى واتخذته مساعدًا لي حتى ينجح فيما فشلت وأعلق به نجاحي، فهو يخاف الظهور للضوء دائمًا، وإن ظهر ظهر مع خطيبته، فقط أتذكر ذلك اليوم جيدًا الذي جاءني فيه يطلب مساعدتي على ذلك المرض الذي لحق به في أثناء معالجة أحد المرضى أصابه سرطان في الدم، ولكن ليس هناك أي مرض يقف أمام اختراعي وإكسيري؛ لذا حتم علي الأمر أن أبعد كل من يقترب عن طريقي حتى ذلك الحارس القديم الذي فضح أمري وهددني أكثر من مرة، لقد وقع عقد انتهاء حياته بيده.

كنت أحادثه بالتي هي أحـسن ولكنـه لم يـستجب لـي وطلـب مبلغًـا مهولاً كي يبقي فمه مغلقاً، ولكني لا أمتلك ذلك المبلغ، فكان يجـب أن أقتلـه وأنحيه عن طريقي حتى أُكمل ما بدأت، ولن يقف أمامي أي إنسان.

لن يصل أحد إلي أو يتعرف علي مهما كان، حتى وإن كان ذلك العالم الذي يلاحقني أينما ذهبت، وإن اضطرني الأمر فسأقتله، لكني سوف أحـزن كثيرًا عليـه، فهـو عبقـري سـريع البديهـة يـا ليتـه كـان معـي في كـل تلـك الظروف، كان صنع من الإكسير الألف زجاجة، وقد يصنع أفضل منـه، فهـو عالم بيولوجي بحت، ولقد حقنته بذلك الإكسير وأعطيته من العمر المائة عام على عمره، يجب أن يشكرني لتلك الهبة التي منحتها إياه دون مقابل عندما نظر إلى الصورة وحقنته بالإكسير ونقلته إلى منزلـه كنـت أعتقـد جازمًـا أنـه سيُجن من ذلك الذي لحق بـه، ولكنه كان عكـس المتوقـع، يمتلـك الـتحكم في عقله بقدرة عجيبه.

قطعت سيل نظراتي عن تلك الكلمات التي أقرأها رغمًا عني، ووقفـت مذهولاً تأتي في خاطري آلاف الأفكار والخواطر، لا أعلم أيهـا صـحيح وأيهـا خاطئ، أتذكر تلك الكلمات التي انطبعت في سرداب ذاكرتي.. أود أن أشـكره وأود أن أقتله وأود أن أعرف ماذا يخطط وماذا ينوي الفعل.

قلبت باقي الصفحات وجدتها بلغة مبهمة غير مفهومة.. بخط عربي

ولكنها غير مفهومة.. ونظرت أمامي في المرآة وجدتني أعود إلى شكلي الأصلي كما أنا، وعدت في هيئتي القديمة.. تفحصت ملامحي وهيئتي أمام المرآة والورق في يدي، لكن الملف وقع من يدي على الأرض، وأشعر أن اصطدامه بالأرض إنما انفجار لقنبلة جرثومية جعلت البيت كله أنقاضًا، ولكني لم أشغل بالي بذلك الملف الملقى على الأرض، وكأنه شخص مصروع أو مقتول في حرب لم يحمل في أثنائها أي سلاح يدافع به عن نفسه، وكانت النتيجة أنه ملقى على الأرض غارقًا في دمائه.

عدت أتحسس وجهي بيدي أمام المرآة.. نظرت إلى الورق الذي تنعكس صورته رغمًا عني.. أنظر إلى تلك الكلمات المبهمة أجدها تُقرأ مفهومة بالغة الوضوح في المرآة فقط!

كتبها بعكس ترتيبها، فاللغة العربية تكتب من اليمين إلى اليسار، ولكنه كتبها من اليسار إلى اليمين، وكأنه يكتب الإنجليزية أو أي لغة أخرى غربية، قربت تلك الصفحات من المرآة واستدعيت جميع أعصابي التي تجعل عيني تريان وتقرآن، وبدأت في قراءة تلك الكلمات:

في حالة وقوع تلك الصفحات في يد أي إنسان غيري فأعلم أنه لن يستطيع قراءة تلك الكلمات، هكذا كنت أحدث نفسي، أشعر أني من أهم أسباب وقوع الحرب العالمية الأولى، والثانية، والآن أنا بينهم في تعداد

الميتين، بعدما أخذت من خلايا جسدي ووضعتها في إنسان آخر وأجريت عليه التجارب وحقنته بحقنة أدرينالين في جسده حتى أصبح يشبهني تمامًا ووجدوه ميتًا في ألمانيا في برلين.

هنا لن يعرف أي إنسان هويتي الحقيقية ولا شخصيتي. يرونني المهندس إبراهيم الطناني، ولكني أتحول لأي إنسان كيفما أشاء ومتى أشاء. وكل من حقنته بالإكسير وأخذت منه عينة لحمضه النووي أجري عليها تجاربي أحقن نفسي بذلك المحلول.. في خلال لحظات أتحول إلى نفس الشخص بجميع صفاته الوراثية حتى بصماته وصوته وعينيه وقرنيتيهما، كل شيء وإن وجدني ورآني وكأنه ينظر إلى مرآة..

وهكذا ارتكبت جميع جرائمي في سبيل العلم، لقد كان العلم هو متعتي التي لا تنتهي.. التلاعب بالبشر ووضعهم في تجارب ليس لها نهاية.. تجارب تثير شهواتهم إلى المزيد إلى أن يصلوا إلى السر الخفي، ولكنهم يريدون أن يفضحوا أمري، ولكن الوقت ليس ملكًا لهم بالمرة.. أنا أقتلهم تباعًا ما إن يبدأ أحدهم في فتح فمه محاولا التحدث عما رأى أو عن تفاصيل التجربة.. وأذكر ذلك اليوم الذي قتلت فيه خمسة أشخاص دفعة واحدة، لقد كانوا أغبياء بالحد الكافي ليأتوا جميعهم في ذلك الحفل الذي أقمته وانتظرت حتى غادر الضيوف وبعثت لكل منهم رسالة بأن ينتظر حتى

نهاية الحفل، وأغلقت كل الأبواب وأشعلت النيران في الفيلا كاملة وأسمع صراخهم وعويلهم الذي لا يجديهم نفعًا، ومن ثم كتبت الجرائد في اليوم التالي عن تلك المذبحة أن الحادث كان جرَّاء ماس كهربي لا أكثر.

قرأت تلك الكلمات وأنا أشعر بداخلي أني أواجه ذلك المجرم القاتل العالِم وجهًا لوجه دون أي فاصل. بحثت في كل تلك الكلمات عن أي خيط يدلني على سبيل إليه ولكنني لم أجد هذا. قررت التخفي والعثور عليه مهما كلفني الأمر.

تنكرت في زي عامل نظافة وأخفيت ملامحي تمامًا عن ما هي عليه في أصلها وجلست منتظرًا أمام تلك العمارة لعلي أجد رهف أو الطبيب أو حتى ذلك العالم. وطال انتظاري. وبدأ اليأس يلتمس ويخترق ويمزق أمامه ليرسم طريقاً إلى نفسي بأني لن أجده ولن أعثر عليه.

مرت ساعات الصباح كأنها حلم، وأنا كالسكران شارد أنظر إلى الفراغ لا أكاد أتذكر أي شيء مما رأيت وتلك الأيام التي قضيتها في تلك المغامرة التي كادت تودي بحياتي. شعور مختلط يجمع بين الدهشة والحزن والغضب معًا كان كل ما حدث لي في الأيام الماضية يسيطر على شواردي وعقلي وخواطري سيطرة الاستعمار على قرية خالية من البشر.

– 16 –

رسالة لي ونهاية غير متوقعة

كانت تلك الأحداث أغنتني عن قراءة ومطالعة الصحف والجرائد ولكني أخذت واحدًا مما أتى بها الحارس هذا اليوم.. وبدأت أطالع صفحاته كالعادة قضايا غسل أموال، وحالات فشل طبي، وموت المريض، وبعد المشاحنات السياسية كالعادة، وبعض الثورات.. وغيرها، ولم ألحظ أي جديد، ولكن سقطت ورقة من الجريدة وأنا أقلب صفحاتها.. ورقة مكتوبة بخط رأيته من قبل كأنها رسالة من شخص ما بذلك الخط الذي قرأته أمس، فالضغط العلوي على حرفي الباء والجيم يشير إلى مستوى مرتفع من العبقرية، بينما تفلطح الأجزاء السفلية يشير إلى دقة بالغة وحدة في الطباع، ولكن إذا لاحظت الميل والضغط في أسلوب الكتابة فهذا يدل على نرجسية حادة ونقص الشعور بالشفقة، أما الميل الأمامي للأحرف فهذا يدل على الجنون الأخلاقي، ولن يكون هذا الخط وتلك الكلمات المرسومة إلا لشخص واحد فقط هو ذلك المجنون بالطبع، ذلك الإبراهيم، إن لم أخطئ القول.

فتحت تلك الورقة المبهمة بعدما قرأت مقدمتها وعلمت لتوي من المرسل، وكتب فيها بنفس الخط أيضًا:

«رائع كل ما توصلت له، ولكني أريد أشيائي التي سرقتها، وهناك نتقابل لأعلمك بكل شيء.. اليوم العاشرة مساءً».

لم يكتب العنوان.. هل يحاول خداعي أم يحاول أن يستدرجني إلى شقته مرة أخرى؟

تحسست الورقة بأطراف أناملي وجدتها سميكة لا تستخدم إلا في حالات الطباعة فقط، ولكن هناك آلاف المطابع هنا.. نظرت إليها ووجدت عليها نقطة حمراء فاتحة اللون تفترش منها مساحة ضئيلة تعبر عن نفسها.. شممتها.. وضعت طرف لساني أتذوق طعمها لعلها بقعة دم، ولكن خطأ توقعي، فهي نقطة من نبيذ فاخر يسمى الشمبانيا. استرجعت في ذهني هذه المعلومات وربطت التفاصيل ببعضها الواحدة تلو الأخرى، ولع في ذهني المكان المنشود في حي الهرم حيث لا توجد إلا مطبعة وحيدة بالقاهرة التي تقع بجانب حانة تبيع الشمبانيا لأنها غالية الثمن. نظرت في ساعة يدي فوجدتها تشير إلى الثامنة مساءً، هممت والتقطت معطفي وغادرت الشقة ولم آخذ إلا النوتة والملف الأخضر، ذلك وأنا أشعر بالسعادة تملأني لتحقق مرادي أخيرًا؛ أني سأرى ذلك العالِم.. هل أحدثه عن مدى إعجابي بعبقريته أم هل أواجهه بما فعل؟

كيف سيكون اللقاء؟ قد يبعث بأحد ليقتلني، ولكن لتلافي ذلك الخطر

سأظل في مكان يعج بالبشر حتى يصعب عليه قتلي. هل سأراه أخيرًا؟

استمررت على هذا التفكير إلى أن وصلت أخيرًا إلى مكان الحانة، وإن كان صدق توقعي وحدسي صحيحين فسأجده. وصلت ولم أجد الكثير من الناس.. أغلقت السيارة وأخذت في السير على قدمي للوصول لتلك الحانة. وصلت ولم أجد أي إنسان في هذا الشارع، وقد كان قلبي يخفق بشدة من هول وفزع ما يحيط بي وكأني ذهبت لمقابلة كائن غير بشري ليس إنسانًا. انتظرت قليلا حتى أشارت ساعتي إلى العاشرة تمامًا، نظرت حولي، رأيت ذلك الرجل عريض المنكبين الذي أنقذ تلك الفتاة الصغيرة بعد أن صدمتها السيارة، ونظرت حولي لأجد هذا المكان الذي وقعت فيه الجريمة، وهذا الشارع، هل يعقل هذا؟ هل رآني في ذلك الوقت الذي أسرع فيه لينقذ تلك المسكينة من ذلك الوحش الذي صدمها وتركها وفر بسيارته هاربًا وكأنه لم يفعل شيئًا؟ ظهر في النور وتبسم لي وقال: ها قد التقينا أيها العبقري. قلت بصوت مرتعش: هل أنت.. فقاطعني قائلا: نعم.. أنا إبراهيم الطناني.

صعقت من هذه الإجابة المباغتة.. تفحصت ملامحه ووجهه أشعث كثير بياض الشعر.. جلده أبيض كلون الثلج لا يحوي أي تجاعيد تدل على مرحلة الشيخوخة، وكأنه تمثال جليدي له لحية ليست بالكثيفة طويل القامة عريض المنكبين مفتول العضلات يرتدي سترة بيضاء وبنطالاً أبيض

وكأني أشعر أني أمام ملاك، وقد بدأت فترة حسابي. وحينما صافحته بشرته تكاد تكون متجمدة، وأشعر أن ليس هناك ذلك السائل الذي يعطي للجسم حرارته ويسمى الدم. أطرافه مثلجة. أشعر أني لو صدمته في أحد أطرافه فستتهشم كالزجاج، ولكنها تحوي أعصابًا شديدة المرونة والقوة، وذلك يتضح جليًا من قبضة يده.

لم أستطع الحديث ولكنه بادرني: جئت بما سرقت؟ فقلت متلعثمًا: نعم. وأعطيته النوتة والمجلد، فقال لي: إلى ماذا توصلت إذًا من كل هذا البحث وكل هذا العناء؟ بادرته قائلا: كل شيء.. نعم كل شيء.. إلا الشفرات الكيميائية.. علمت متى حقنتني بالإكسير ومتى حقنت رهف وأحمد متولي ولماذا قتلت زوجتك والخمسة الذين قتلتهم، وكل شيء، ولكن لا تقلق فلن أبلغ عنك لأني لم أجد في عبقريتك إنسانًا.

قلت تلك الكلمات التي خرجت من فمي مندفعة وكأني كنت أحبسها دهرًا، وما إن وجدت سبيلاً للخروج حتى اندفعت كبركان ثائر يقذف ما حوله بسائله الملتهب المميت.

قال لي: وأنا لم أنوِ قتلك أو الفتك بك، ولكن دعني أعلمك بكل شيء منذ البداية، وستعمل معي.

وأخذته في سيارتي متخوفًا منه ولكن أخذت منه كلمة شرف، ولكني

أشعر أنها لا تجدي نفعًا. على أي حال توجهنا إلى الشقة وهنا ونحن نـصعد تلك الدرجات رأيت رهف أخيرًا هي وطبيبها أحمد متولي منتظرين في شـقة العالم. في حين دخولنا قرأت في ملامح وجـوههم أنهـم كـانوا منتظـرين لهفًـا وعلى أحر من الجمر إذ يشتعل لقائي أنـا الآخـر. تبادلنـا الحـديث عـن تلـك الأيام وهم يشيدون بعبقريتي في اكتشاف اللغـز، ولكـن قطـع حـديثنا العـالم إبراهيم وقال: وها نحن الآن الأربعة مـن يـسري الإكـسير ويجـري مجـرى دمائهم، ولن يعرف أحد إلا بعد انتهاء التجارب ومسح كل أثر ودليل عن أي جريمة ارتكبناها.

فقلت: ولكني لم أرتكب جرائم. قاطعني ضاحكًا: لا تقلق، فقد قتلت شابًا أول أمس وأنا في شخصيتك.

انتفضت صائحًا: أنت كاذب.. وأين الدليل؟

لقد كانت صدمة بكل المقاييس إذ فاجأني بجريدة منشور بها صورتي للبحث عني بعدما أكد شهود العيان أني المجرم الرئيسي في هـذه الجريمـة. عجز عقلي عن التفكير ورأيت أني أقحمت نفسي في جريمة قد أحـاكم عليهـا بالإعدام ولست فاعلها، ولكن لن يميز أحد أبدًا الفاعل الحقيقـي عـني، لأنـه ببساطة في أثناء فعل تلك الجريمة الشنعاء تقمص شخصيتي بكـل مـا فيهـا.. بجسدي ودمائي ووجهي وجيناتي.. نعم أنا من ارتكبتها أمام كل البشر، إلا

هؤلاء الثلاثة، ولا يمكن أن أتركهم بعد الآن لأني سوف يقبض علي ويضيع كل شيء وما فعلت وما بحثت. عقلي يشتعل غضبًا وقلبي ينتفض فزعًا ودمائي تغلي داخل عروقي وصدري يزمجر بقوة لا أدري ماذا أفعل وما الحل.. كنت أتمنى لو كنت أحلم، ولكن ليس حلمًا.. كنت أتمنى أن أفيق لأجد نفسي باسطًا جسدي على فراشي وأتكئ برأسي على وسادتي ومغطى بلحافي.. كم كنت أتخيل نفسي ميتًا أو مقتولاً، ولكن لم يأتِ في بالي هذا الأمر قط حينما قفزت لذهني صورتي بالحمام التي كانت تدل على أنها مرآة، ولكنها لم تكن مرآة قط، لقد كان يقف أمامي بشحمه ولحمه، ولكني أنظر إلى نفسي لا أنظر إليه، وهذه إحدى عجائب ذلك الإكسير.. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

جلست ساندًا ظهري على الأريكة محاولاً تقمص شخصيتي الهادئة، ولكن غضبي يمزقني.. يقتلني.. وأنا أحاول احتواءه بشتى الطرق، وسألت مبادرًا لأبدأ الحديث: وما عمل الإكسير فعليًا؟

أجابني ذلك المجنون وقال: إنه يختلف من إنسان لآخر تبعًا لشخصيته، فأنا كمثال بعدما صنعته وقمت بتجربته على نفسي لم يتغير شكلي مثل أحمد ورهف، ولكن ازددت قوة وسرعة وعبقرية وفطنة، ولكن تثلجت أطرافي.. أستطيع التحول لأي شخص مهما كان بأخذ عينة من

جسده، ولو خلية، وحقنها مع الإكسير في جسدي، وفي غضون خمس دقائق أكون تحولت تمامًا إلى نفس الشخص بتركيبه الجيني والجسدي.

أما رهف.. فكما ترى.. لا تكبر ولا تشيخ أبدًا، لها قدرة عالية على الحفظ، تتكلم كل اللغات، وقامت بزيارة جميع أنحاء العالم في أحلامها، وأصبحت لديها إمكانية التحكم في أحلامها جيدًا، ووضع معايير وإسقاطات الحلم وأشخاصه.

أما أحمد متولي فأيضًا لا يشيخ أبدًا.. ازدادت سرعة أطرافه، واكتسب تحكمًا عقليًّا في كل خلية في جسده، حتى ولو كانت غير إرادية، فهو يستطيع التحكم في إفراز هرموناته وإنزيماته، يشعر بالجوع وقتما يشاء ويشعر بالشبع وقتما يشاء، أكتسب معارف عظيمة بتلك القدرة على قراءة ألف صفحة من كتاب في 10 دقائق فقط يحفظ كل ما وقعت عليه عيناه.

وأنت؟

جاء سؤاله تلك المرة غريبًا، وإن كان ذلك من وجهة نظرى أنا فقط، حيث وجدتهم منتظرين الإجابة بصبر نافد، ولكني حقًا لا أعلم تأثير ذلك الإكسير على جسدي، غير أني لا أشعر بالجوع ولا العطش منذ أيام، وأشعر بالقوة تتخلل أوصالي وتتفشى فيها، أحلم عدة أحلام أعجب ما يكون، ولكني أيضًا لم أشعر بالنعاس منذ أيام تقريبًا، منذ بداية حقني بالإكسير، وبعد أن

أفقت من غيبوبتي التي حلمت في أثنائها حلمي الثالث، لم أنم منذ ذلك الوقت وأشعر وكأني حائط إسمنتي أو دانة مدفع لا يمكن أن تتهشم أو يحدث بها شرخ، هذا ما أشعر به.

نظرت إليهم.. ليس هناك أي تأثير باد على ملامحهم ووجوههم إلا أن ذلك العالِم أخذ يكتب بعض الكلمات وأراها معادلات، ومن ثم فزع فزعًا شديدًا، وكأنما دخل القبر، أو أنها الطامة الكبرى، وقال لي: الإكسير بعدما حقنتك به أظهر نتائج مختلفة بالمرة عنا جميعًا، ولا أعلم هل هي مفيدة أم مضرة بك، ولكن بقي لك من الأيام ثلاثة على انتهاء مدة حضانة ذلك الإكسير، وسيبدأ بالعمل جليًا، ووقتها نرى كل التغيرات أمام أعيننا.

حقيقة فزعت من تلك الكلمات وازداد خوفي من تلك التجربة التي شحنت نفسي فيها رغمًا عني لأرضي ذلك الذي يقبع بداخلي دائم الشكر والثناء على عبقريته الفذة التي أوقعته في ما لا يطيق الآن، ولكن ما باليد حيلة، لقد أوشكت على النهاية، ولكني حقيقة لم أكن واضعًا خطة للهروب بعد معرفة كل شيء، ولكني تركت الأمر لحين وقته. وبعد مرور الثلاثة أيام، وهأنذا أجري التجارب مع هذا المجنون وذلك الطبيب، ولا أعلم ماذا أفعل، ولكن كل ما أعلمه جيدًا أني أصنع الإكسير بعدة طرق أخرى عن سابقتها، وظل الأمر هكذا إلى أن صنعنا من الإكسير بنفس المواصفات القياسية

زجاجة كاملة، فلقد كانت عملية صنعه حقًا مستحيلة.. عمليات تقطير وتشريح وعصر ومزج وترسيب وترشيح وخلط وغليان.. والكثير من العمليات التي تجعلنا نأخذ بحرًا كاملاً بأسماكه ونضغطها في زجاجة واحدة وغير ممتلئة بالكامل، وأنا لا أفهم شيئًا في النهاية إلا بعض تلك التجارب البيولوجية البحته التي قمت بها وأنا محيط بجوانبها كافة ولا شيء جديد.

اليوم الثالث والأخير ولم أنم منذ خمسة عشر يومًا تقريبًا.. قائمًا في المعمل أعمل أنا وذلك المجنون وهذا الطبيب على صنع المزيد والمزيد من المحلول، كنت أشعر بالإنهاك الشديد لا أستطيع حمل أي جزء من جسدي.. أحسست باختناق مفاجئ يسري إلى صدري سريان الكهرباء في أسلاكها ومحولاتها وكأني أفقد طاقتي وأتحول إلى إعصار أوشك على الانتهاء.. جلست متكئًا على مقعد أمامي لا أرى أمام عيني شبرًا واحدًا.. جاءني العالم إبراهيم مفزوعًا مشدوهًا.. ترك ما في يده على وجه السرعة ووضع بعضًا من الإكسير في سرنجة وحقنني به.. لم تؤتِ ثمارها.. أخذني ووضعني على ذلك الجهاز المخبأ في سرداب خفي من سراديب المعمل، حيث له باب سحري. وضع الثلاثة مقسات على رأسي.. شغل الجهاز وفات الأوان..

انفجر المعمل بعد ما نسي العالم إبراهيم الطناني المحلول على النار حتى وصل لدرجة الغليان وتحطم محدثًا انفجارًا عظيمًا أودى بحياة كل من

كان في المعمل وفي المنزل عمومًا.

وجدت الشرطة أربع جثث في المنزل وبعض الأوراق التي نهشت النيران من شبابها وحولت بعضها إلى رماد كتب عليها مذكرات دكتور إبراهيم الطناني، وبجانبها نوتة كتب فيها العالم أ. رمضان، لم تترك النار إلا ثلثها من كلمات دقق فيها كثيرًا الطبيب الشرعي ولم يفهم منها شيئًا، وقال وبكل بساطة: لقد أدى ماس كهربي إلى انفجار ذلك الأنبوب مما أضرم النيران في كل أنحاء الشقة.

ومات السر للأبد.